الإسلام في عالم متغيّر

بحوث إسلاميّة قيّمة

كتبها

السيّد أبو الحسن علي الحسني النّدوي

نقلها إلى العربيّة

علي عثمان

منشورات دار مكتبة الحياة

بيروت - لبنان



الإسلام

في

عالم متغير

بحوث إسلامية قيمة

كتبها

السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي

نقلها إلى العربية

علي عثمان

منشورات دار مكتبة الحياة

بيروت - لبنان

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

الإسلام
في
عالم متغيّر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه اجمعين .

وبعد فهذه محاضرات القاها الاستاذ الداعيه ابو الحسن الندوي في عدد من المؤتمرات في الهند ، بحضور عدد كبير من اساتذة وممثلين عن الجامعات والمعاهد الاسلامية . واضعاً اللمسات الاخيرة في امور حساسة في حياة المسلمين المعاصرة .

حيث تعرض في احداها بالنقد والتحليل لما يورثه التعصب الشديد في قوم او امة للغتها ، او تراثها الثقافي التقليدي ، دون النظر إلى حقائق الامور .

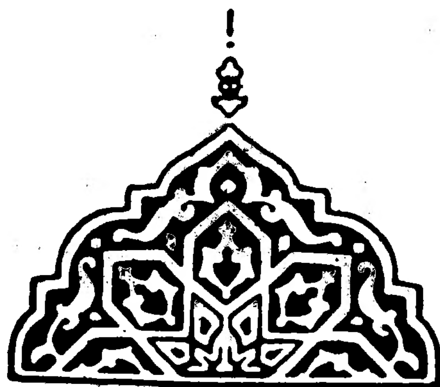
كما بين في محاضرات اخرى مصادر العلوم الانسانية وشرح نظرته الى الاسلام في عالم متغير .

هذا وقد اضفنا الى هذه المحاضرات رسالة سيرة النبي الأمين إلى انسان القرن العشرين .

وقد وافق لنا الاستاذ أبو الحسن الندوي على نشر هذه المحاضرات في كتاب عسى ان يفيد المسلمين جزاه الله عنا الف خير .

نرجو من الله تعالى ان يسدد خطانا ويوفقنا لما فيه خير الاسلام والمسلمين .

دار مكتبة الحياة



المبحث الأول

كارثة التعصّب اللغويّ والثقافيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في الثالث والعشرين من آذار ١٩٧٢ القى الاستاذ الداعية ابو الحسن علي الندوي كلمة في المؤتمر المنعقد تحت رعاية اتحاد الطلبة المسلمين في كلكتا بعنوان « كارثة التعصب اللغوي والثقافي » حيث تعرض بالنقد والتحليل لما يورثه التعصب الشديد من قوم أو أمة للغتها وتراثها الثقافي التقليدي دون النظر الى حقائق الامور ، والنتائج المترتبة على هذه الشوفينية[1] منوها بذلك الى ما كان يحدث في شبه القارة الهندية من مآس وانفصال بنغلادش عن جسم دولة باكستان الاسلامية . ويرد هذا التعصب الى جهل المسلمين . . . وابعاد الدين عن التطبيق العملي في حياتهم . ويحث الشعوب الاسلامية الى اشباع ثقافاتها ولغاتها بالروح الاسلامية المقترنة باللغة العربية وترك الحمية الجاهلية جانبا لنستحق نصر الله الذي وعد به المؤمنون .

علي عثمان

---

(١) الشوفينية : التعصب القومي الاعمى .

كارثة التعصّب اللغويّ والثقافيّ

لقد انعم الله على البشر بنعم عديدة . . واحدى هذه النعم مقدرة الانسان على التعلم من تجاربه الماضية . فان تعثر في طريقه ، فهو يحاول اكتشاف السبب ويزيل العائق من طريقه ، أو انه يحيد بخطواته تجنبا لها . اذا وجد طريقه غير سالك لوجود عوائق متعددة ، فانه ينتقل الى طريق مستوية ومستقيمة ، وحيثما ارتكب خطأ ، أو وقع في مجازفة ، فانه يحاول فهم وتحليل سبب فشله ، ويحاول تجنب الخطأ الذي وقع فيه في المرة الاولى ، فلا يسير على الطريق الخاطئة لئلا يصل إلى الفشل للمرة الثانية .

لا شك في أن قدرة الانسان على فهم السبب والنتيجة وعلى تحليل العلاقة بينهما هي نعمة أنعمها الله على الانسان وحده . والحقيقة ان هذه القدرة المميزة التي يتمتع بها الانسان هي التي تميزه عن الانعام والحيوانات ، وهي السبب الوحيد في كل تقدم بشري في مجال الفنون والعلوم ، والثقافة والحضارة .

وليس الانسان بمعصوم عن الخطأ ، بل الخطأ من طبيعته ، فهو عرضة لان يتعثر في طريقه . فلقد توارث الخطيئة عن آدم ، ولكن اعتراف المرء بخطيئته وشعوره بالندم والاسف لارتكابها ، ومحاولته اصلاح نفسه كل هذا عمل يستحق الثناء ، وهذه هي

الطريقة التي يعوض بها الانسان عن الخسارة التـي لحقـت به ، وأحيانا يصبح هذا الانسان مرتكب الاثم تائبا يذوب ندما وتأثرا ، حتى انه ليبلغ الدرجات العلا في لحظات قليلة . . تلك الدرجات التي لا تدرك في سنين من العبادة والدموع ، والتي تحسده عليها الملائكة .

ولقد أرتكب أبو البشر خطيئة أيضا لكنه لم يصر عليها . فما أن وقع فيها حتى خر جاثيا على ركبتيه راجيا عفو ربه الرحيم ، وفي لمح البصر ارتفع آدم إلى ذلك العلو الروحاني في القرب من الله عز وجل . . . ذلك العلـو الـذي لم يبلغه قبـل ارتكابـه للخطيئـة المؤلمة ، ولقد نادى ربه :

« . . . ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »[1] .

ماذا حقق آدم بتوبتـه إلى الله ؟ ان القـرآن يقـدم دليلا بليغـا لانجازه الرائع :

« وعصى آدم ربــه فغــوى . ثم اجتبــاه ربــه فتــاب عليه وهدى »[1] .

أما الشيطان فقد اصر على معصيته وحاول تبـرير فعلـه بهـذا الشكل :

---

(١) الاعراف : ٢٣ .
(١) طه : ١٢١ ـ ١٢٢ .

« قال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين »[٢] .

نِعَمٌ أم نِقَمٌ ! ؟

ان التقدم الثقافي والحضاري الذي أحرزه الانسان ، وكذلك التقدم الذي حققه في مجال كثير من النشاطات البشرية الاخرى ، مدينة بمنشأها للاخطاء التي ارتكبها إلى درجة لا تقل أهمية عن كونها مدينة لمحاولاته التي كانت توجهها قراراته الصحيحة . فلا مبالغة . . . اذا ادعينا أن فترات تاريخية قد بدأت بالانجازات الناجمة عن أخطاء ، وان تاريخ البشرية على سطح كوكبنا هذا يسجل حوادث كثيرة كهذه ، وبعبارة أخرى فان التاريخ سجل لاخطاء الانسان بقدر ما هو سجل لقراراته وأحكامه التامة وأعماله الصحيحة ، ونستطيع أن نورد أمثلة كثيرة كهذه من التاريخ المدون الذي يؤيد هذا ويؤكده :

ان نجاة النبي موسى عليه السلام وبني اسرائيل وغرق فرعون مع جنده في البحر الاحمر كان سبب ضياع الطريق أمام موسى عليه السلام حينما عبر البحر إلى صحراء سيناء .

وكولومبوس اكتشف القارة الامريكية نتيجة لخطئه في اتخاذ طريق بحري صحيح . لان طلبه الحقيقي كان ايجاد طريق قابلة للملاحة الى الهند .

---

(٢) الاعراف : ١١ .

انكار المرء لاخطائه :

لا يجوز لانسان واع حكيم أن يغمض عينيه على الخطأ الذي ارتكبه مرة ، أو يترك تحليل أسباب فشله . فالاحمق وحده يرتكب نفس الخطأ باستمرار ، أو يلدغ من نفس الجحر مرتين ، وهذا - بكل تأكيد - لا يليق بانسان مؤمن أنعم الله عليه بالهداية والحكمة مخاطب أن يستغل طاقاته العقلية وتجاربه في الحياة إلى أقصى حد ، وان عدم أخذ العبر والعظات من التجارب الماضية من صفات المنافقين كما وصفهم القرآن . فهم في الواقع لا يستفيدون من تجربتهم :

« أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون »[1] .

ولقد وضع النبيﷺ الثقة في حكمة المؤمن حيث قال :

« لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين »[2] .

جاهلية اللغة والثقافة :

منذ أيام قليلة مضت ، وفي بلد ذي أغلبية مسلمة، وفيه عدد لا يحصى من المساجد وبيوت العبادة ، والذي اشتهر بكونه موطنا

---

(١) التوبة : ١٢٦ .

(٢) رواه الامام احمد في مسنده والبخاري ومسلم وابو داود وابن ماجة ، عن ابي هريرة وهو صحيح .

للعديد من الوعاظ الدينيين والاولياء الصوفيين ، هبت عاصفة من التعصب اللغوي والثقافي ، وجرفت بعيدا بكل مساعي الدعاة ورجال الله على مدى قرون . فقتل المسلم أخوه المسلم دون أي وخز من ضمير وقتل آدميون بالطريقة التي يقتل بها الثعابين والعقارب دون أدنى رحمة أو شفقة ، ولم يعد هناك ملجأ لاولئك الناس في البلد الذي فروا اليه يوما ما لانقاذ حياتهم ، وأصبح الانسان يطارد الانسان وكأنه صياد يرمي بشباكه لصيد السمك أو يقتفي أثر حيوانات برية دون أن يذوب قلبه رحمة او تمتلىء مقلتاه بالدموع ، ولم تحترم عفة النساء ولم يرحم الضعفاء والشيوخ ، وحتى الاطفال الابرياء لم يعاملوا بأدنى شفقة أو رحمة ، ولقد أنزل الاخ بأخيه كل أنواع العذاب والالم ، سواء كانت من جراء الجوع والعطش ، أو المحن الشديدة ، ولقد طغى صنم اللغة على الايمان بوحدانية الله واخوة الانسان ، حطم التعصب القومي والعرقي أخوة الاسلام ، وتغلبت جاهلية الماضي الوثني على الروابط الموحدة للعقيدة الاسلامية وقضت عليها بشكل تام وكأنها لم تكن موجودة في أي مكان أو زمان منذ ظهور الاسلام . ولم يهن مسلم من قبل مسلما آخر أبدا بالطريقة التي حدثت في ذلك البلد حتى ولا في الماضي البعيد .

الفروق اللغوية :

لقد تكونت لدى الانسان العديد من اللغات والثقافات والطقوس والعادات منذ أن ظهر على سطح هذا الكوكب ، وان

هذه الفروق في اللغات وأنماط الحياة ساعدت الانسان على تطوير نماذج جديدة من الثقافة واغناء وتحسين حياته ، والحقيقة - كما يذكرنا القرآن - أن هذه كلها نعم الهية منَّ الله بها على الانسان :

« يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم »[1] .

ومرة أخرى :

« ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين »[2] .

ان تاريخ البشرية مليء بالحروب والغزوات المأساوية والاحداث الاليمة ولكننا لم نسمع بحرب واحدة قط أعلنت من أجل اللغة أو الثقافة وحدها ، ولقد أشتهر العرب بلغتهم الجميلة وبتحيزهم لها إلى درجة انهم سموا كل الشعوب الاخرى أعاجم ، ولكن لم يذكر التاريخ حربا واحدة أعلنت من أجل لغتهم ، ولقد شجب الاسلام هذه النزعات وأعتبرها محرمة ومحظورة وسماها بـ « الحمية الجاهلية » ، وحارب الاسلام هذه العاطفة وحط من شأنها ، وساواها برواسب الجاهلية الوثنية ، وانتقص منها واعتبرها بمثابة مكائد من أجل عبادة الاوثان وانكار الله ، ووصف المتحمسين لها بأنهم أعداء لله ورسوله وأعلن : بأن الذين يقاتلون

---

(١) سورة الحجرات الآية ٦٣ .

(٢) سورة الروم الآية ٢٢ .

من أجلها ثم يقتلون يموتون ميتة المرتدين والكفار ، ولم نسمع حتى عن الجاهلية انها حاربت ارضاء لعاطفتها السائدة وهي تحيزها لتفوقها اللغوي .

في الواقع أن القومية العدوانية الاوروبية هي التي منحت اللغة والثقافة نظرة تبجيل ، وخلقت منها آلهة ، أهرق دم الانسان وقدم ضحية على مذبحها ، وشجعت الامم على احياء ثقافتها وتراثها القديم ، لبعث اللغات الميتةوحتى القتال من أجلها! !هذه هي الوثيقة الجديدة للعصور الحديثة التي أدت إلى ظهور شكل جديد من الحروب الصليبية ، والتي لم يعرفها العالم منذ زمن طويل . لقد بثت اوروبا ايديولوجيتها بفكر واف وبصيرة نادرة ، وبالتدرج شيئا فشيئا علقت القومية بمخيلة الشعوب المسلمة التي كان أبناؤها مؤمنين حقا ، ويحتقرون كل آثار وسمات الماضي الوثني ، وكان من المتوقع ألا يقعوا فريسة للتعصب اللغوي مثل غيرهم من الشعوب ، وذلك بسبب توجيه الدين الاسلامي . والحق انه كان من واجبهم معرفة أن هذه النزعة لا تجد ثوابا من الله عز وجل ولا تعادل حبة من خردل في حكمه .

ولكن فجأة ظهر هذا الخطر الجديد في العالم الاسلامي ، وانفجر كالبركان في قلب بلد مسلم مواكبا بالموت والدمار ، وبكل تأكيد فان هذا الاتجاه لم يهدف الى ارضاء الله عز وجل ، أو إلى كبح جماح الشر والفساد ووساوس الشيطان ، ولم يكن الهدف من ذلك احلال السلام والمودة ، أو نشر رسالة الرحمة والاخوة .

حدث كل ذلك لان الاغلبية العظمى لهذا البلد أعطت أذنا صاغية للمراوغين الماكرين في الغرب ومن سار في ركبهم ، وهكذا وُضعت الاغلبية على خط سير خاطىء .

خسارة للاسلام لا تعوض :

وعلى الرغم من كون اهراق الدم المسلم والقتل والتدمير محزنا فيبقى الوجه المعيب للامر هو تسليح أعداء الاسلام بسلاح جديد ضده ، والنتيجة التي وضعوها هي ان الاسلام غير قادر على توحيد شعوب مختلفة ذات أجناس وثقافات ولغات مختلفة ، وانه باعتباره مبدأ عقيديا غير ملائم لتوفير قوة لجمع الشمل ولبناء مجتمع ما وتأسيس دولة .

ويستشهد أعداء الاسلام بهذا الحادث كدليل على الضعف المتأصل في الاسلام غير القادر على تدبير وصيانة الكيان الاجتماعي المنظم على أسسه ! ! . . هذا هو أفظع ضرر يلحق بالاسلام من جراء الشوفينية اللغوية والثقافية .

لنفترض انك تعيش في أحد المراكز المالية التجارية في الهند فستكون على علم تام بأن ارتفاع وهبوط الاسعار والتوقف المؤقت في العمل والتجارة ، أو خسارة طفيفة أو فائدة طفيفة ليست بنفس أهمية فقدان (خسارة) شركة ما لاسمها التجاري . لان الاسم التجاري لشركة ما هو الا اشارة ورمز للشهرة التي تمتاز بها تجارتها ، وهو يعتبر واحدا من موجوداتها الثمينة وله قيمة نقدية

رائجة ، حتى انه يشترى ويباع بمئات الآلاف من الروبيات اعتمادا على رواج تجارة الشركة . . والحادث الذي ذكرته توا قد وقع على الاسلام وقع الخسارة الفظيعة وخلق صعوبات هائلة في وجه العلماء والدعاة الذين يقدمون عقيدتهم باعتبارها قوة توحيد عظيمة . وفوق ذلك فقد شكك ما وقع بكامل منجزات الاسلام التاريخية والآن من يستطيع الدفاع عن ميزة المساواة في الاسلام التي محت في يوم ما التمييز بين البيض والسود والآسيويين والافريقيين والملوك والفقراء والسادة العبيد ؟ !! ان الاهمية لانجازات الاسلام الماضية هي حقيقة ثابتة ترتفع فوق أي شك أو شبهة ولقد أعجب العالم دائما بانجازاته ، ولكن الآن كيف نقول للعالم : ان مشاعر وعواطف الاخوة التي جاء بها الاسلام تتجاوز فروق العرق واللون واللغة وتوحد المؤمنين في مجتمع روحي واحد غير متفكك ؟ !! هذه هي الخسارة التي لا نرى كلمات للتعبير عن الاسف لها ، حتى وان ذرفت دموع من دم فهي لا تكفي للرثاء على النكبة التي حلت بالاسلام .

الداء وأسبابه :

لنفترض أن كل ما حدث كان نتيجة لعبة سياسية كأن تكون بعض الاحزاب السياسية المنطوية على بث الشقاق والفرقة قد نجحت في تضليل شعب بسيط . . وأما أن تخدع أمة بكاملها بهذه السهولة ! ! . وأن تضل السبيل بشكل تام ! ! . حتى انها

فقدت التمييز كله بين الايمان والردة، وبين الاسلام والجاهلية ، وبين التآلف والتنافر ! ! فلم تكن مجرد مصادفة ، أو سبب حماقة الشعب بكامله ، ولم تكن بسبب النفاق الماكر ودهاء قواده ، وما من حركة سياسية تستطيع النجاح في أي بلد كان ما لم يكن الشعب مستعدا لقبول الايديولوجية التي ينادي بها زعماء تلك الحركة ، وتحظى بتأييد صادق من الجماهير ، ولو لم تكن الامة في حالة نفسية لتقبل تلك الايديولوجية والاعتراف بها لمرت هذه العاصفة النارية الضارية من فوق رؤوسهم دون أن تجرف كل شيء امامها كما يفعل السيل الجارف ، ومهما كانت رجفة الهياج مثيرة فهي ليست متينة أبدا ، ولكن القلق (الاضطراب) العميق الجذور وطبيعته المنتشرة على مدى واسع ، وقوته تبين أن الامة سبق وأن ابتليت بالمرض ، وأن وعيها للتضامن الاسلامي لم يكن ناميا ومتقدما بالشكل التام ، وكان يعوزها المستوى اللازم من التعليم في العقائد والممارسات الاسلامية ، والا فانها لا يمكن أن تكون قد سقطت بهذه السهولة في أيام المحنة . . .

الافتقار الى الوعي الديني :

ان السبب الاكبر لهذا الحادث المؤسف ، في رأيي هو الافتقار الى الوعي الديني الصحيح . فلا يكفي أن يكنّ المرء حبا خالصا للاسلام فحسب بل يتوجب عليه أن يكون لديه وعي متطور في ادراك الامور من الوجهة الاسلامية ، وعلى المرء الا يكون متعلقا بالاسلام عاطفيا فحسب بل يتوجب عليه أن يكره كل الفلسفات

والافكار والمثل اللااسلامية ، ولقد عبر القرآن في مواضع عديدة عن كرهه للشيطان ولحملة ألوية البهتان والجاهلية قبل أن يدعو الى الاتكال على الله اتكالا تاماً فيقول :

« ومن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها »[1] .

حتى ان الشهادة التي تثبت ايمان المؤمن تبدأ بانكار وجود الآلهة بكافة أشكالها فتبدأ بـ « لا اله الا الله » ثم تؤكد على السيادة العليا المطلقة لله عز وجل بعبارة « الا الله » . ونعلم من الاحاديث النبوية أن ايمان المؤمن لا يكتمل ، ولا يتضح له ادراك معنى ايمانه الا اذا تعلم أن يمقت الردة وكل مظاهرها . ولقد ورد في أحد الاحاديث النبوية الشريفة من رواية البخاري[2] :

« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » .

ادراك الجاهلية :

على المسلم ان يكره العمل ضد مصلحة الاسلام أو التحالف مع أعدائه ، وانه ليتوجب عليه استغفار ربه لمجرد ذكر افتراض

---

(١) البقرة ٢٥٦ .

(٢) الصحيحين : رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة واحمد في مسنده عن انس وهو حديث صحيح .

كهذا ، وعليه الا يخطر بباله امكانية كهذه أبدا ، وعليه الا يكون عاطفيا يكتفي بالنفور من الجاهلية فحسب بل عليه أن يدرك تماما مظاهرها الخداعة لئلا يخدع بمكرها . وعلى المسلم الا يسمح لنفسه بأن يخدع بحيلة الجاهلية الكاذبة حتى وان ظهرت برداء الكعبة والقرآن في يدها . وعليه أن يلجأ الى الله للاحتماء منها ، وأن يكتشفها في جميع الاشكال والصور التي تتخذها في الظهور أمامه .

خدع الشيطان :

ان تكتيك الشيطان أو بالاحرى استراتيجيته في معركته ضد المسلمين هي أنه دائما يهاجم عندما يرى نقطة ضعف حساسة في جانبهم ، وانه لا يلجأ الى نفس المكيدة ضد كل فرد أو فئة من المسلمين ، وان همساته الخفية للورع والتقى ليست من أجل أن ينغمس في شهوات الجسد أبدا لانه لا أمل له بالنجاح في مسعى كهذا ، وانما يريد أن يضلهم بمظاهر الشهرة ، والمجد ، والغرور ، والغيرة ، والحكم الذاتي ، وحب السلطة ، والثروة ، وانه يخبرهم أن يناضلوا من أجل الحكم الذاتي ، وتقدم حضارتهم ولغتهم وسيادة قومهم ، مهما كانت المخاطر ! !! هذه بعض الاهداف الطنانة التي كثيرا ما ضللت حتى المثقفين وذوي الاطلاع الواسع بالاضافة إلى أولئك الناس ذوي الايمان المتين والروح القوية .

طيش العرب :

كانت تلك هي الاغنية الساحرة التي غناها الشيطان لاغواء العرب ، ولقد أخبروا أن القرآن أنزل بلغتهم وأرسل آخر رسول من الله اليهم ، وان بيت الله ومثوى رسوله ﷺ في أرضهم ، وأنه ما من شعب يستطيع أن يدعي فهم عقائد الاسلام أكثر منهم . لذا لن يكون من العدل على الاطلاق أن ينظر العالم الاسلامي الى القسطنطينية كمركز سياسي له ، وأن يكون التركي الذي ليس من سلالة العرب ولا يتكلم لغة القرآن مقررا (متحكما) لمصير العرب . لقد كانت الحجة التي تروق للكثيرين منهم - والذين كانوا يحلمون منذ زمن طويل بامبراطورية عربية وبالحكم الذاتي وبتقاسم أكاليل الغار - بانهم استاءوا من السلوك المتعجرف المتغطرس للاتراك . لذا فقد رفعوا راية التمرد ضدهم ، وأصبحوا أداة في يد المستعمرين الانكليز ! ! . . وتعاون شريف مكة مع الحلفاء أعداء الاتراك في حاضرة الاسلام ! . واحتذى به العرب في العراق والشام .

لقد تحققت خطط القوى الامبريالية . . فالاتراك هزموا وانتهت الخلافة العثمانية ، وتمزق تضامن العالم الاسلامي ، ولكن هذه لم تكن هي النهاية . . . فانه بسقوط الخلافة هدم حصن الاسلام ، ولم يعد هناك شيء تخافه القوى الاوروبية ، أو قوة تحسب حسابها . لذا تصرفت بكامل الحرية في بلاد الاسلام ،

وظهرت فكرة الوطن القومي لليهود ، ثم تحقق انشاء دولة اسرائيل وقوَّت بنيانها ، وأخيرا أجبر العرب على أن يشاركوا في بيت المقدس وقبة الصخرة أيضا . . كل هذا كان نتيجة التعلق بالايديولوجيات الجاهلية التي أسرت قلوب العرب وأرواحهم .

التعصب : حمية الجاهلية :

كل طالب في علوم القرآن والسنة النبوية الشريفة يعلم ان التعصب الاعمى لطائفة ما من اجل العرق ، الدم ، اللون ، اللغة أو الثقافة ، هو من تقاليد الماضي الوثني شجبه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بقوة ، ويعلن كتاب الله بكلمات ليس فيها غموض أو التباس :

« اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية »[(١)] .

ومثله ورد في أحد الاحاديث النبوية :

« ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس من مات على عصبية »[(٢)] .

وذات مرة تشاجر رجل من المهاجرين مع آخر من الأنصار واستنجد كل منهما بقومه ، اذ نادى الرجل الاول : يا للمهاجرين ! . . بينما صاح الآخر : يا للانصار ! . . . وعندما

---

(١) الفتح الآية : ٢٦ .

(٢) ابو داوود عن جبير بن مطعم وهو حديث حسن .

انتهى ذلك الى النبي ﷺ نصحهما قائلا :

« دعوها فانها خبيثة »[1] .

لقد كان النبي ﷺ يكره تعصب الجاهلية حتى انه كان ينهي - دائما - أولئك الذين يرفعون هذا الشعار أو ينادون الناس للمناصرة باسمها ، ما كان الرسول ﷺ ليتفوه بكلمة قاسية حتى ضد ألد أعدائه ولكنه أجاز انكار التعصب الجاهلي بمنتهى الصرامة والقسوة دون ابداء أي مجاملة أو مراعاة ، أو اللجوء الى لغة المجاز .

فوضى اللغات :

ان الاختلاف في اللغات التي يتكلم بها البشر هو أمر طبيعي بل انه في الواقع لنعمة . . . فالقرآن يصف هذا الاختلاف بأنه فضل الهي وانه من بديع صنع الله :

« ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم والوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين »[2] .

ولكن عندما تتمجد اللغات وتقدس ، ويرفع مقامها الى مستوى الالوهية تصبح نقمة أكثر من كونها نعمة ، ووسيلة هدم بدل أن تكون أداة الود والمحبة . . . عندئذ ينبذ البشر على مذبحها قرابين حية للآلهة .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) سورة الروم الآية : ٢٢ .

واللغات وجدت لتوحد لا لتفرق . فيجب أن تكون وسيلة اتصال لا أداة انفصال ولتؤلف بين الناس وتجعلهم يهتمون بشؤون بعضهم البعض ، ويتقاسمون اهتماماتهم وهمومهم ، وأن يعملوا كأصدقاء يسعفون بعضهم البعض ، ولكن اذا كان هدفها دق إسفين الفرقة بين الشعوب ، وخلق العداوةوتوريث البغضاء والحقد والضغينة فمن الافضل لو أن الانسان ولد دون لسان ، وبقي أبكماً الى الابد ، في الواقع لو خلق كذلك لكان سبيل التفاهم بين البشر بالاشارات والايماءات أقل قسوة وألما مما عليه الحال الان من حيث التعذيب والمذابح ولكان ذلك ـ على الاقل ـ سيخلص النساء والاطفال البريئين من الاهوال التي لا توصف ، والبلاد كلها من الدمار والخراب . . .

الانسان لا يقدر بثمن :

والانسان لم يخلق للغة ، وانما اللغة هي التي وجدت من أجله ، وان حياة انسان واحد أنفس من كنوز اللغة وآدابها بأكملها ، وأغلى من كل مجموعات النثر والشعر ، ومن كل الكتابات الرائعة والمنمقة ،وكل ما خطه قلم الانسان . فاللغات تظهر إلى الوجود ، وتنتشر وتتبدل فيعتريها التحول والذبول وتموت ، ولكن الانسان يبقى هو نفسه وسيبقى كذلك دائما .

وعي الاسلام :

لا يمكننا انكار حقيقة أن مساعينا لم توجه الى تطوير الوعي

الاسلامي بقدر ما وجهت الى غرس الشعور الديني في الاذهان ، ومراقبة الواجبات الدينية ، ونتيجة لذلك نرى التفاوت بين الادراك العام لاهداف الاسلام ككل ، وبين المحافظة على واجباته الدينية في معظم بلاد المسلمين . فتستطيع أن تجد رجلا مفرط التقيد باقامة صلواته ، وتزكية نفسه ولكنه في الوقت ذاته يمكن أن يكون ذا ادراك طفولي غير متطور من حيث وعيه الاسلامي . فهو يتبع بدقة العقائد والعبادات ، ولكنه يبقى جاهلا بمبادىء الاسلام الاساسية ، وبمقدوره ارتكاب خطأ لا يليق بمسلم حسن الاطلاع ، وربما كان على جهل تام بالتمييز بين الاسلام والجاهلية ، ويمكن بسهولة أن يقع ضحية لخداع دجال ذكي ، وقد يصبح أداة في يد غير المسلمين لتدمير الاسلام ، وانه فعل كل ذلك عن حسن ظن دون أن يشعر بأقل تناقض بين فعله وعقيدته . وتستطيع أن تجد الكثير من الامثلة لهذه الحال في التاريخ الاسلامي ، وربما أعطت الحوادث الاخيرة المثال الصحيح لها .

لقد كان هؤلاء الناس من بين كل مسلمي شبه القارة الهندية معروفين دائما بايمانهم الصحيح ، في الخطب واللقاءات الدينية ، ولكن للاسف لقد سقطوا ضحية لألاعيب الساسة المخادعين ، وان هؤلاء المسلمين البسطاء اما أن يكونوا مضللين بوسائل الغواية فأصبحوا شركاء في هذه المسرحية المأساوية من الدم والنار ، أو انهم لم يستطيعوا المقاومة بصمود وشجاعة في مواجهة

تعصب الجاهلية كما هو الواجب بحكم كونهم مسلمين ، وعناصر في مجتمع واع لذاته .

صحابة النبي صلى الله عليه وسلم :

ولكن الامر كان مختلفا تماما بالنسبة للصحابة . فالارشاد الذي تلقوه من الرسولﷺ كان كاملا وشاملا لمجموعة السلوك البشري بكامله وانه لمن العبث البحث في صفحات التاريخ عن نماذج لهم في الحصافة ونفاذ البصيرة . لقد خلق فيهم الارشاد النبوي بصيرة مكنتهم دائما من التمييز بين الحق والباطل ، وبين العدل والجور ، وبين الاسلام والجاهلية .

لقد كانت أعماق قلوبهم وعقولهم في وضع لا يسمح بنفاذ أي شيء مخالف اليها ولا لشيء ملتو أو جائر أن يحظى منهم بالقبول . والآن أود أن أضع أمامكم مثالا جليا لفطنة الصحابة رضي الله عنهم ، لتعلموا مدى حب الصحابة وتقديرهم لنبي الاسلام ﷺ . ولولا الخوف من تأليههم لكائن بشري حيث يتعارض ذلك مع عقيدة التوحيد لكان حبهم للرسول لا ثاني أثنين في هذا الكون .

ولقد عبر شاعر فارسي بجدارة عن اعجابهم وتقديرهم للرسول بهذا القول :

« وباختصار فانك بعد الله أعظم من نقدره » .

كان الصحابة يعلمون أن النبيﷺ لا ينطق عن الهوى ، وأن

كل ما يقوله وحي من الله تعالى ، وكان ايمانهم راسخا بما جاء في كتاب الله حيث بين بوضوح :

« وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى »[1] .

والآن ضعوا هذا التقدير والتبجيل من قبل الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ في اعتباركم وستدركون بشكل أفضل ما سأخبركم به :

قال رسول الله ﷺ لاصحابه رضي الله عنهم : « أنصر أخاك ظالما أو مظلوما »[2] .

بحكم اخلاص الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لمرشدهم المحبوب فانهم يلتزمون بما أوصاهم به من نصرة أحدهم لاخيه المسلم ، وكان هذا الامر في صيغة « أنصر » غاية في الوضوح بالنسبة لاولئك الذين يدركون معنى الامر من النبي ﷺ ولكن هذا الفهم ـ لظاهر الحديث ـ يتعارض مع الارشاد[3] الذي تلقوه من قبل ، والتوجيه النبوي الذي زودوا به لمعارضة الظلم والطغيان ، فأثار هذا في نفوس الصحابة ذلك التساؤل دون تريث فقالوا :

« أنصره مظلوما فكيف أنصره ظالما ؟ » فالرسول لم يلمهم ولم يبد استياءه . بل انه سر ليفسر لهم ما قاله : أجل ، نحجزه عن

---

(١) سورة النجم الآيتان : ٣ ـ ٤ .

(٢) من معاني الامر « الوجوب » .

ظلمه فذلك نصره »[1] . وهذا التفسير أوضح الامر كله للصحابة .

معصية الله أمر لا يجوز :

اليكم المثال الآخر على نفس الوعي الاسلامي المتنور : بعث النبي ﷺ سرية واستعمل عليها الصحابي عبد الله بن حذافة رضي الله عنه وأوعز الى الجند أن يطيعوا توجيهات أميرهم طاعة تامة ولكن حدث بعض التردد في تنفيذ أوامره فغضب الامير وأمرهم بجمع الحطب وعندما انتهوا من جمعه أضرم فيه النار ، وطلب من جنده أن يلقوا بأنفسهم فيها ! ! . فرفضوا أن يفعلوا هذا الامر . فقال لهم عبد الله :

« أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني »

قالوا « بلى » فهموا وجعل بعضهم يمسك بعضا ويقولون فررنا الى النبي ﷺ من النار »[2] .

ولما عادوا إلى المدينة رفع عبد الله القضية الى النبي ﷺ ، ولم يثن الرسول ﷺ على موقف الصحابة من أميرهم فحسب ، بل قال :

« لو دخلوها ما خرجوا منها أبدا » .

---

(١) البخاري ومسند احمد والترمذي وهو صحيح .

(٢) البخاري .

ثم أضاف الرسول ﷺ قائلا : « انما الطاعة في المعروف »[1] .

هذه هي الحكمة التي ساعدت المسلمين على الدوام أن يسيروا على المنهج السوي من الفضيلة والصلاح ، وهي التي منعتهم من أن يستسلموا لدعوات الملوك والحكام المستبدين ، وكذلك القادة الضالين ، ولقد كان المبدأ الذي يرشدهم هو ما قدمه لهم الرسول ﷺ : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[2] .

لقد احتفظ المسلمون بتوازنهم العقلي في المواقف الحرجة . . . ومضوا في طريقهم بأمان دون أن يلقوا بأنفسهم في الاضطرابات العاطفية التي تثيرها العصبية الجاهلية ، وقدموا عددا لا يحصى من العلماء والمصلحين ذوي الشجاعة الفائقة ، والذين رفضوا الانسياق مع التيار العاطفي في زمانهم ، والانجراف مع الناس في عاداتهم العامة ، وشعاراتهم الرائجة التي تحث الناس على مجاراة زمانهم ، وأن قصة شجاعتهم الغالبة والتي بدأت باستشهاد كربلاء يمكن رؤيتها مستمرة بشكل أو بآخر وكان ذلك كله تعبيرا حقيقيا للمبدأ الثابت : « التزام طاعة الله عز وجل مهما كانت العواقب » . .

---

(١) رواه البخاري ومسلم واحمد في مسنده عن علي كرم الله وجهه وهو حسن

(٢) رواه احمد في مسنده والحاكم في مستدركه عن عمران والحكم بن عمر و الغفاري وهو صحيح .

الجرح المميت :

الجرح مميت دون ريب ، ولكن ما من داء ليس له دواء ، وان الامر يتطلب سلوك سبيل الحكمة والتصميم : فاذا اردت استرداد الكنز الذي فقدته أو اقناع ولدك بعدم تبذيره لماله ، أو أن تجد شاة مفقودة عندئذ يتوجب عليك العمل لتحقيق ما تبغيه . . . واذا كان السم يحقن بالكلمة فانك تستطيع أن تقدم الترياق وهذا في الواقع أسهل لان الله خلق اللغات لتجمع بين الناس لا لتفرق . ولقد عبر شاعر فارسي عن الفكرة ذاتها في بيت قصير حلو فيقول :

« لقد جئت لتوحدي
لا لتفرقي » .

الخطر الاكبر :

ان تجريد لغة ما من الفكر والروح الاسلامية ، ومن الأسلوب ومن المصطلحات المتعلقة بالعقيدة أمر مفعم بالخطر دون ريب . . ان اللغات على اتصال وثيق بآفاق الفكر وأعماق القلب . فاذا كانت لغة شعب ما من الشعوب دمغت بأفكار غير اسلامية فان طريقة تفكيرها وأسلوب تعبيرها ومصطلحاتها وبلاغتها ـ تشابيهها واستعاراتها ـ تؤخذ من التقاليد الجاهلية والاعراف الوثنية اذ أنها تعتبر الشخصيات ، والشعراء ، والكتاب الجاهليين مثلا أعلى يستحقون المنافسة ويضمر شعورا من النفور والكراهية ازاء الاسلام والابطال المسلمين وفكرهم . ثم أحذر من أن الامة

عرضة للوقوع في شرك الردة الفكرية والثقافية ، وانه ليمكن دائما اثارة نزواتها الجاهلية لتفسد عليها عقليتها ، وان أي شعار يدعوها الى التعصب العرقي واللغوي يكفي لان يجننها ، ولقد رأينا كيف حدث ذلك منذ أيام قليلة مضت . . .

والآن . . . من الواجب عليكم أن تسدوا مصدر هذا الشر ، ومن الواجب عليكم ليس تعليم هذه اللغات فحسب بل تغذية آدابها بالاعمال وبالكتب والنصوص الاسلامية الى حد بعيد ولتجعلوها اسلامية روحا ومحتوى وتغذوها بالروح والاحكام الاسلامية ، وعليكم أن تخلصوها من تلك الوضاعة الثقافية التي تبعدها عن الاسلام ، وتدفعها نحو أنماط الفكر الجاهلية . ومن الواجب عليكم خلق ذلك الشعور الذي يستطيع به التمييز بين الاسلام والجاهلية وتغرسوا حب الاسلام في قلوب أصحاب تلكم اللغات ، والمقت لكل ما هو غير اسلامي بحيث أنه لا تستطيع عصبية الماضي الجاهلي والتعصب الوطني الوثني ، ولا دعوة لتجنيد القوى من أجل نصرة العرق أو اللغة . . . الوطن أو القوم أن تدق أسفين الفرقة بينهم وبين الاسلام في المستقبل .

فجر عهد جديد :

اذا مكنكم الله عز وجل من اتمام هذه المهمة فان اخطاءنا الماضية والخسائر المحزنة التي عانيناها تستطيع أن تقودنا الى عتبة انجاز مشرق أعظم ، وان هؤلاء الاخوة في دين الاسلام يشكلون

جزءا لا يقدر بثمن من الامة ، وهم الذين قدموا مئات العلماء والاولياء الصالحين ، ولا يزالون يحملون شعلة الاسلام في قلوبهم . . انهم أولئك الناس الذين انجزوا أعمالا بطولية فذة تحت راية حضرة سيد أحمد شهيد في القرن الثالث عشر الهجري ، حتى أن أحد نقاد الاسلام العنيدين مثل الدكتور هنتر ألزم بأن يقدم لهم تحياته الحارة لشجاعتهم ولتحمسهم لدينهم . اذا استطعتم النهوض إلى مستوى المسؤوليات فان عهدا جديدا من البعث الاسلامي بلا شك سيشرق على هذه البلاد التعيسة .

« . . يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم »[1] .

---

(١) سورة الروم الآيتان : ٤ ـ ٥ .

البحث الثاني

مصادر العلوم الإسلامية

ألقى الاستاذ الداعية السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي مادة هذا البحث في الكلمة الختامية للمؤتمر المنعقد في كانون الثاني عام ١٩٧٧ تحت رعاية قسم الدراسات الاسلامية في جامعة عليكرة بحضور عدد كبير من اساتذة وممثلين عن الجامعات والمعاهد الاسلامية . وقد نشرت هذه المحاضرة فيما بعد تحت عنوان « مصادر العلوم الاسلامية » وترجمت إلى اللغة الانكليزية ونشرت في كتيب صغير مع الكلمة الافتتاحية التي القاها الاستاذ الندوي في نفس المؤتمر المذكور تحت عنوان « الاسلام في عالم متغير » .

علي عثمان

مصادر العلوم الإسلامية

كلمة الختام لمولانا السيد
ابو الحسن علي الحسني الندوي

(عقدت الجلسة الاخيرة من المؤتمر بتاريخ ٢٥ كانون الثاني عام ١٩٧٧ برئاسة البروفيسور محمد شافي نائب رئيس الجامعة الاسلامية ـ عليكره . ولقد ألقى مولانا السيد ابو الحسن علي الحسني الندوي الكلمة الختامية . وكان من بين الحاضرين البروفيسور أ . م . خورسو نائب رئيس الجامعة الاسلامية ـ عليكره والسيد بدر الدين طيبجي والدكتور مسعود حسين .

ايها السادة

انه لمن اعظم دواعي سروري أن أرى علماء المعاهد الثقافية الحديثة قد بدأوا يهتمون بالعلوم الاسلامية ، والمؤتمر الحالي هو البرهان على ذلك ، وباعتبارنا أناسا مكرسين لهذه العلوم يمكن لنا أن نقول مع « اقبال » .

« ولت تلك الايام التي كنت فيها وحيدا في الاجتماع كثيرون هم الذين يشاركونني اسراري هذا اليوم » .

لم تكن كنوز المعرفة في يوم ما احتكارا لطبقة اجتماعية دون أخرى وما كان يجب ذلك ، أما فيما يتعلق بالاسلام فانكم تعلمون انه ليس هناك طبقة تتوارث الكهنوت أبا عن جد ، ان مفاهيم الكهنوت هي من صلب العالم النصراني وغريبة في عالم الاسلام ، واذا ما وجدت عبارات أو تعابير كهذه في كتابات بعض العلماء فمرد ذلك فقط إلى التقليد الاعمى للغرب ، اصبحت عبارة « رجال الدين » في ايامنا هذه شائعة ـ حتى بين الكتاب العرب ! ! ـ وبدأوا يستعملونها بنفس المفهوم الذي تعنيه كلمة « الكهنة » في العالم النصراني . أما الكتاب الحذرون المتمسكون بالدين ، والذين يريدون التعريف الصحيح بالفكر والروح

الاسلاميين فقد اجتنبوا بحذر شديد استعمال عبارات كهذه .

وفي الوقت الذي أعبر فيه عن شعوري بالغبطة للاهتمام المتزايد من قبل المراكز العلمية بالعلوم الاسلامية ، أود أن اضيف إلى انه على الرغم من انه لا مكان للقساوسة والكهنوت في الاسلام . . . الا انه كان دائما لدينا علماء ذوو خبرة واختصاص ، ولم يعد بامكان المرء ان يضطلع في كل شيء نظرا للتوسع الطارىء المحسوس الذي حدث في شتى فروع المعرفة . . ففي أوربا بدأت عملية التقدم عندما كرس الناس أنفسهم للتخصص في فروع خاصة من الدراسات ، ولم يعد علماؤها يسيطرون على كافة فروع المعرفة ، واعتقد ان هذا المبدأ ـ وحتى في وقتنا الحالي ـ متبع في اوربا اكثر منه في الشرق ، وهناك يعترف الخبراء في أي مجال كان ـ وبدون تردد ـ بمهنة او بمجال دراسة لا تدخل ضمن مجال اختصاصهم . والان . . علينا نحن ايضا ان نصمم بتحديد مساعينا الادبية والفكرية لتقتصر على موضوع او فرع دراسي خاص بمفرده .

مستوى الثقافات :

انني فخور بأن اكون رفيق درب . . وانتهز ذلك لاتجرأ فأقدم بعض الاقتراحات .

ربما وافقتم معي على ان مستوى الثقافة يتدنى في وسطنا ولقد لمست ذلك في الغرب ايضا ، وقد قال لي بعض العلماء هناك :

ان الفساد تسرب الى دراسة العلوم الشرقية ايضا . . ان الجيل الحالي من العلماء يفتقر الى المثابرة والانكباب ، وذلك لاسباب عديدة بعضها سياسية واخرى اقتصادية .

السر في نمو الاستشراق :

هناك بعض البواعث وراء كل فرع من فروع المعرفة ، ولقد رفعت هذه العوامل الاستشراق في يوم من الايام الى القمة ، وباستثناء القليل من العلوم الطبيعية والاجتماعية فقد كانت الدراسات الشرقية تحظى بشرف عظيم ، وكان المستشرقون بكتاباتهم يتمتعون بأهمية بارزة ، اذ كان العامل القوي الذي يعمل عمله وراء ذلك هو عامل الامبريالية[1] ، ونحن مسرورون على ان ذلك العامل لم يعد فعالا ، ولحسن الحظ او لسوئه فقد كانت أغنى بلدان الشرق تحت حكم المسلمين ، وكان الغرب ينظر اليهم نظرة غيرة وحسد لما عندهم من خيرات . .

ارادت الامبريالية الغربية اقامة مستعمرات جديدة لذا كان من الضروري لها : دراسة الخصائص القومية لتلك البلدان . . ولقد كان هؤلاء المستشرقون هم طلائع المستعمرين . . فقد لقوا رعاية الجهات الرسمية ووضعت اموال طائلة تحت تصرفهم ، وكانوا يستقبلون بحفاوة وتقدير في بلاط الملوك ورؤساء الدول . . . لقد زال هذا العامل من الوجود أما الدافع الاخر فقد كان الكسب

---

(١) المقصود بها بسط النفوذ عن طريق الشركات والمؤسسات الاقتصادية . . .

الاقتصادي الذي فقد فعاليته هو ايضا ، فقد خضعت البنية الاقتصادية للتحول بحيث لم تعد مواصلة الدراسات الشرقية تدر النفع المادي كما كانت من قبل .

التفرغ :

ان روح التكريس قد ضعفت بين علماء ومثقفي عصرنا . . فقد ضعف حب المعرفة ونضب معه معين القدرة على الجد والاجتهاد ، وانني لا أشير بذلك الى أي كلية أو جامعة دون أخرى إنما هي ملاحظة عامة كما وجدتها ويلمس في كل مكان - تقريبا - ان التكريس الكامل الذي كان يتميز به علماء الماضي لم يعد له وجود في وقتنا الحاضر . . . .

ونستطيع أن نحرز فكرة من كتاب « علماء السلف » الذي كتبه نواب صدر يار جونك مولانا حبيب الرحمن شرواني هنا في عليكره حيث جاء فيه كم كان علماء تلك الايام مشغولين بالدراسة والبحث !! وأي فساد ملحوظ حل بها الان ؟ !! لماذا ؟؟ ! .

إن الاسباب تتعلق بالسياسة والاقتصاد، والادب والاخلاق، سواء بسواء . . وليس من الممكن - أو من الضروري مناقشتها هنا . . والامر الواضح جدا هو ان حب المعرفة الذي يسمو فوق كل شيء ، ويجعل الانسان لا يبالي حتى بالحاجة الى الطعام والملبس ، قد أصبح ذلك الحب نادرا ان لم نقل قد همد .

خذ حال مولانـا لطف اللـه من عليكره . . كم كان اهتمامـه بعمله شديدا ولكن دعه وشأنه . . اليك من بين العلماء الاوربيين رجل يدعى لين والذي يعتبر معجمه العربي أساسا لا غنى عنه ليس فقط عند طلاب اللغة العربية وحدهـم من الانـكليز ، بل حتى عند العلماء العرب ، ولقد سمعت انه عندما كان يعمل في معجمه هذا في القاهرة لم يغادر شقته لاشهر ، ولم يتعـرف إلى السوق ، ولم يهتم أبـدا بأن يذهـب لرؤ ية الاهرامـات . ربمـا تستطيع أن تسمي ذلك بلادة أو افتقارا إلى الـذوق السـليم . . حسبما تريد ، ولكنك اذا تمعنت في تاريخ روائع الفـن والمعرفـة ستجد ان صانعي هذه الروائع ومؤ لفيها قد عاشوا في عالم خاص بهم ، وكان عملهم هو العاطفة بالنسبة لهم وما كان لديهم وقت لاي شيء أخر أو ميل اليه . . .

الشخصيات الادبية المعاصرة :

انني اتكلم إلى اولئك الـذين اتخـذوا القـراءة والكتابـة مهنـة لهم . . عندما قرر مولانا شبلي الكتابة عن مكتبة الاسكندرية كان الطلاب المسلمون هدفا لاقوال السخرية : آه . . أجل ! تنتمون إلى الدين والمجتمع الذي أحرق خليفته مكتبة الاسكندرية ! ! . . كان هذا الكلام على لسان كل الناس ، واولئـك الذين عاصروا تلك الايام لا يزالون على قيد الحياة ويحكون أنهـم احتـاروا أين يخفون رؤوسهم أو كيف يجيبون .

والرواية الشائعة هي ان الخليفة عمر - رضي الله عنه - أخبر ان مكتبة الاسكندرية مليئة بالكتب الفلسفية ، وأنه أجاب : « اذا كانت تلك الكتب تتوافق مع القرآن لتبق على حالها ، أما اذا كانت تتعارض معه فيجب ان تحرق . . » ويزعم أنه تقرر ان الكتب كلها كانت مناقضة لما جاء به القرآن لذا أحرقت حتى آخر كتاب فيها دون ان تفتح لمعرفة مضمونها ! ! . .

انها قصة ملفقة بالكامل . . حتى ان مؤرخا مثل توينبي (Toynbee) قد أسهم في استمرار تداول هذه القصة ، وفي مجال تعليقه على تبديل الابجدية التركية من قبل أتاتورك يقول توينبي : « انه لو تعلق الامر بالوقت الحاضر لما أحرقت مكتبة الاسكندرية . . ان التبديل في الابجدية كان كافيا » . ولقد فجر العلامة شبلي الاسطورة الى الابد واصبح الآن من غير اللائق برجل مثقف ان يقول بأن مكتبة الاسكندرية أضرمت فيها النار بناء على أوامر الخليفة عمر - رضي الله عنه - في خلافته . . لقد قدم أدلة لا تدحض على أن النار أتت على مكتبة الاسكندرية قبل تولي عمر - رضي الله عنه - الخلافة بزمن طويل .

لقد رفع العلامة شبلي ايضا قضية الجزية وناقشها حتى أنه لم يترك شيئا لمن أتى بعده . ويعتبر مؤلفه « شير العجم » دراسة وبحثا رائعين حتى في ايران ، ويقول البروفيسور براون في كتابه Literary History of Persia : لو انه رغب في تعلم اللغة الاوردية لكان ذلك فقط من اجل تمكينه من دراسة « شير العجم » مباشرة .

كان كل هذا بسبب استغراق العلماء في المعرفة مثل العلامة شبلي .

ولقد ألف العلامة سليمان الندوي - الذي تتعلق مواضيعه الرئيسة التي يكتبها بالقرآن والسيرة النبوية والتاريخ الاسلامي - كتابا رائعا عن عمر الخيام حتى انه استحوذ على اعجاب الاوساط الادبية في ايران ايضا ، وكتابهArab - O - Hind Ke Talluqat يمثل قمة المثابرة والبحث العلمي .

ويجدر بي هنا ان اذكر كتاب « نزهة الخواطر » الذي كتبه والدي مولانا عبد الحي . . لقد كتبه بالعربية ، ويقع في ثمانية مجلدات ويبحث في ما يزيد على ٤٥٠٠ شخصية بارزة في الهند ، وكان قد صمم ان يصنفه في بداية القرن العشرين حينما كان هناك القليل من التسهيلات لتعلم اللغة العربية والكتابة بها في بلادنا ، ولقد استغرق منه العمل حوالي خمسا وعشرين سنة لاتمامه ، ويعتبر الان - حتى في اوروبا - اثمن مرجع من نوعه ، وكتابه « الثقافة الاسلامية في الهند » يحتوي تاريخا كاملا للبحوث والعلوم العربية ، ووصفا تفصيليا للكتب والمخطوطات التي خلفها العلماء الهنود ، ولقد نشر في عام سبعة وخمسين وتسعمائة وألف من قبل المجمع العلمي في دمشق ، ولقد سمعت شخصيا علماء سورية وهم يتكلمون عنه بتقدير .

المعرفة من اجل المعرفة :

كان عالم بمفرده - فيما مضى - يقوم بعمل أكاديميات علمية

بكاملها ، أما الان فقد اقيمت الجمعيات والمؤسسات الضخمة لكن مردودها - اجمالا - غير مشجع ، وقليلا ما تقوم بأعمال اصيلة مبتكرة .

ان ما نحتاجه هو رفع مستوى الثقافة . وما المعرفة الا كد وجني ثمرته ، وعطش وارتواء ، وجوع وشبع ...

على المرء ان يكرس كامل جهده لعمله وأن يعتبره مكافأة في حد ذاته ، لا رئاسة فرع معين في هذه الجامعة او تلك .

ان علماء عصرنا الحاضر يستعجلون لجمع المحصول وينصب اهتمامهم الاكبر على الشهرة والترفيع في الخدمة وزيادة التعويض وان قسما كبيرا من طاقتهم يصرف في السعي وراء هذه الاغراض ، وان الربح المادي هو الاساس في نظرهم ولا بد انكم سمعتم بمبادىء كثيرة ، والمبدأ الجديد الذي ينتشر في مؤسساتنا الثقافية ألا وهو المهنية Careérism » :

الظمأ للمعرفة يجب ألا يكون حالة عابرة :

وشيء آخر هو : ألا يكون الاهتمام بالنشاطات الثقافية اهتماما عابرا فنختار موضوعا للبحث فيه ثم نجتره بسرعة فنلقيه خارجا كحيوان يجتر فلا يكون هناك التزام بالموضوع ولا تعلق ثابت به فاذا ما انتهى البحث غسلنا أيدينا من الامر كله ولنذكر قول اقبال :

« ان هدف الفن هو لهب الحياة الخالدة
وليس فورة نشاط او اثنتين تختفيان كالشرارة » .

منابع الدراسة الاسلامية تكمن في الايمان :

ربما تقرأون بالطبع في بعض البحوث عن الحاجة إلى الاجتهاد في العلوم الاسلامية ، وكلنا نوافق على ذلك . . ولكن لماذا أغلق بابه وما أسباب ذلك وما مدى صحته ؟؟ فتلك قضية اخرى ، وسوف أشير إلى ان بعض أصول العلوم الاسلامية تكمن في الدين . انه المصدر الرئيسي لها ، لذا يجب ان نختلف في موقفنا حيالها عن المستشرقين ، وألا يكون هذا الموقف اكاديميا بأن نقوم بمناقشتها فقط دون أي شعور بالالتزام ، وينبغي علينا ان نعتقد بها شريطة أن تكون مرتبطة بأركان الايمان وتهذيبها في حياتنا العملية ، ولقد سمعت في طفولتي ان عشرة مندات[1] من الحكمة ضرورية لمند واحد من المعرفة ، والا . . لا يتمكن المرء من استنتاج فائدة حقيقية من المعرفة ولا استعمالها بشكل ملائم ، وسأدخل تحسينا على ذلك وأقول : ان التقوى يجب ان تكون موجودة ايضا بشكل متناسب مع البحث ، لان القضية هي قضية العلوم الاسلامية ذات الصلة الوثيقة بالدين ، ولا نستطيع ان نخضعها للتشريح كجثة ، أجل : ليس من العدالة ان يكون كذلك ، فيجب ان يكون النقد خاليا من الازدراء والسخرية . .

---

(١) المند : وحدة وزن هندية تعادل ٢٨ر٨٢ باوند .

ان اولئك الذين هم على وعي بمسئوليات الدراسة والبحث وتغير الافكار والاراء لا يقدمون آراءهم واحكامهم بطريقة جازمة موثوقة ولا يفسرون نظرية كما لو انها كانت آخر كلمة في السطر ، وينبغي ان يكون موقفهم كمن توصل إلى نتيجة ظهرت بأنها صحيحة في تلك اللحظة .

وفي جلسة أمس أخر السيد بدر الدين طيجي الذي كان يترأسها احد المتكلمين الذين انتهى الوقت المخصص له ، فلم يقل له : ان وقته قد انتهى ، وانما قال له : « اخشى انه قد انتهى الوقت المخصص لك » . نستطيع ان نتعلم الكثير من ذلك ، علينا ان نمارس الكبح في تفكيرنا ، وان نتعلم ابداء الاحترام والتقدير للعلم وللشخص الذي كرس حياته وطاقاته له .

أهمية اللغة العربية :

ان اللغة العربية ذات اهمية جوهرية . . فالمرء لا يستطيع ان يقوم بأي دراسة في العلوم الاسلامية دون ان يكون على درجة من الكفاءة في معرفتها ، وان العلماء الذين لا يتقنون معرفة اللغة العربية معرضون لارتكاب اخطاء فظيعة عندما يكتبون عن القرآن والحديث والدراسات الاسلامية ، وذلك بسبب افتقارهم الى المعرفة باللغة العربية .

اخبرني احد اصدقائي ـ ذات مرة ـ ان رجلا قد ترجم معاني القرآن الى اللغة الانكليزية كان يتكلم في مؤتمر في مدينة دلهي ،

وحدث ان الاديبة المعروفة « بنت الشاطيء » كانت حاضرة ايضا ، ولقد طلبت منه أن يتكلم بالعربية فأجاب ـ بدون خجل ـ بأنه لا يعرف هذه اللغة ، ثم سألته بنت الشاطيء بتعجب : وكيف تستطيع اذن ان تترجم معاني القرآن ؟ ؟ ! . . وحين عودتها الى بلدها كتبت سلسلة من المقالات في جريدة الاهرام في القاهرة عن تلك التجربة الغريبة التي مرت بها وعلقت قائلة : « لقد رأيت شيئا من عجائب الدنيا ، وكان هذا : ان سيدا قد ترجم القرآن ويجهل اللغة العربية ! ! » . .

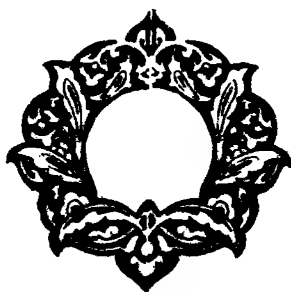
تستطيعون الحصول بسهولة على معرفة كافية باللغة العربية وتنجوا بأنفسكم من الوقوع في الاخطاء ، والمدارس العربية سوف تقدم لكم كل العون من اجل ذلك .

تجنبوا احداث الفوضى :

يتسرع بعض الناس في التعبير عن آرائهم ، ثم لا يلبثون بعد فترة ان يتراجعوا عنها ! ! . . لا شك بأنهم يؤدون واجبهم ، ولكن ماذا عن اولئك الذين كان عليهم ان يغادروا هذه الدنيا وهم على ضلال من جراء اتباع اولئك الناس ؟ ! . . وتصبح المشكلة خطيرة عندما تتعلق هذه الاراء بالعقيدة والدين . . لذا ينبغي ان لا ينفذ الصبر في التعبير عن آرائنا ، وخاصة عندما تخص عالم الدين ، وعلينا ان نفكر فيها مليا، ونتفحصها ، ونعرضها على اهل الخبرة وننتظر حكمهم . . حينذاك فقط يمكن ان تنشر .

ان عصرنا هو عصر الفوضى والانسان هادىء يميل الى الاهمال بطبيعته فحضارة العصر والخطوات السريعة للتقدم العلمي ، والارتفاع المستمر في مستوى المعيشة . . يفضي به الى ان يكون اكثر حبا للراحة وتعرضا للفوضى ، وعلينا والحال هذه أن نحجم عَن قول أشياء يمكن لها ان تزيد في الاضطراب الفكري عند الناس .

عندما هزم العرب في حربهم مع اسرائيل عام ١٩٦٧ قلت يومذاك في مقابلة أجريت معي : « ان المسؤولية عن تلك الهزيمة تقع الى درجة كبيرة على عاتق اولئك المشككين من مفكرينا الذين زعزعوا الاسس الاخلاقية والفكرية للشباب ، وألقوا بالقيم التقليدية في رحاب الفوضى » .



البَحثُ الثالث

الإسلام
في
عالم متغيّر

ألقى الاستاذ الداعية السيد أبو الحسن علي الندوي مادة هذا البحث في الكلمة الافتتاحية للمؤتمر المنعقد في كانون الثاني ١٩٧٧ تحت رعاية قسم الدراسات الاسلامية في جامعة عليكرة بحضور عدد كبير من أساتذة وممثلين عن الجامعات والمعاهد الاسلامية . وقد نشرت هذه المحاضرة فيما بعد مع الكلمة الختامية التي القاها الاستاذ الندوي في نفس المؤتمر المذكور ضمن كتيب ما لبث أن ترجم إلى اللغة الانكليزية يحمل عنوان الكلمة الافتتاحية وهو : « الاسلام في عالم متغير » .

علي عثمان

الإسلام في عالم متغير

أيها السادة ، نائب رئيس الجامعة ، اعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة والضيوف المحترمين . .

أشكر منظمي هذا المؤتمر لمنحهم اياي شرف افتتاحه ، ولقد أحسنوا صنعا باقامته تحت رعاية الجامعة الاسلامية عليكره ، والتي اهتمت بالعالم المتغير فيما يتعلق خاصة بالاسلام والمسلمين في الهند .

ان الحركات والمؤسسات التي تعترف بحقيقة التغير تحمل نفسها مسؤولية عظمى . . انه ليس من السهل الاعتراف بالحاجة إلى التغيير والتعديل ، اذ يترتب على ذلك المراقبة باستمرار للتبدلات والتغيرات التي تجري من حولنا وفحصها وتقييمها بموضوعية ، ونتسائل فيما اذا كنا مهيئين فعلا لهذه التغيرات ونقبل بتحديها ونكيف أنفسنا بموجبها ؟ ؟ . .

لقد أخذ علماء الجامعة الاسلامية وندوة العلماء على عاتقهم مهمة كبرى ، وان حشدا من أولئك الذين يمارسون السلطة في هذين المعهدين يشهد هذا المكان اليوم ، وعليهم أن يحللوا انفسهم قبل تحليلهم للعصور وأن يقرروا فيما اذا كانوا مهيئين

للقبول بتغير مشروع مرة أخرى بعد ان خضعوا للتحول في ما مضى .

التغير قانون الحياة

ان موضوع المناقشة اليوم هو الاسلام في عالم متغير وانه يتألف من شطرين : « الاسلام » و« العالم المتغير» وبذلك انتهز الفرصة لاقدم آرائي عن وجهي المسألة كليهما ، بحيث نضفي عليها شيئا من الفكر بشكل صريح وحر .

يفترض ، عموما ، أنه ليس للزمن ثبات أو دوام ، بل أنه اسم آخر للتغير والتحول ، ولكن ليس الامر كذلك . ان الزمن مركب من الاثنين ـ التغير والاستمرار ، واذا اختل هذا التوازن كأن يتحكم الاستمرار بالتغير ، أو يتسلط التغير على الاستمرار ، فان ذلك سينتج آثاراً خطيرة تنعكس على المجتمع والحضارة ، وإن التوازن بحاجة الى التناسب حتى اكثر من أي مركب كيميائي .

إن الزمن له القدرة على التغيير ويجب ان يغير ، وذلك ليس علامة ضعف أو نقص ، انما هو قانون الحياة ، وكما قال اقبال : « ان الحياة دائمة الحركة ، دائمة الانسياب ، دائمة الشباب » وان الحياة الخالية من القدرة على النمو والتطور يمكن ان تكون أي شيء آخر الا الحياة .

إلى جانب ذلك فان مقاومة التغير هي ـ أيضا ـ صفة متأصلة في الزمن ، وان مظاهر التغير تبدو لنا بوضوح . . وكلنا نشعر كم

تحول الزمن بشكل كبير . اننا في مجريات الامور العادية لا نوفق في الادراك ادراكا تاما للصراع الـذي يقـوم به الزمـن ليحافـظ على خواصه الجيدة والسليمـة وطبيعتـه وصفتـه الحقيقية ، وان ذلك يتطلب مجهرا خاصا .

خذ النهر الذي يمثل نموذجا مثاليا للحركة . . ما من موجتـين من امواجه متماثلتان على الاطلاق ، وبالرغم من أمواجه العابـرة فانه موجود مكانه منذ آلاف السنين ، محتفظا بكل خصائصـه ، واسمه واتجاهه . . فانهار دجلة والفرات والغانج وجامونا كلها هي نفسها منذ أن كانت في العصور الغابرة .

ان الزمن ساكن بالاضافة الى كونه متحـركا . . . كلا هاتـين الصفتين جوهريتان بالنسبة له ، فهو ـ بدون أي منهما ـ لا يستطيع الاحتفاظ بفائدته بنفس الطريقة ، لان القوى السالبـة والموجبـة تعمل عملها في الاشياء الحية وغير الحية الموجودة في العالـم ، وعن طريق أفعالها وردود فعلها تحقق هذه الاشياء قدرها .

الدين هو حارس الحياة :

باعتباري مريدا وتابعا لدين لا يمكنني ـ أبدا ـ ان اقبل وضعا يستجيب فيه هذا الدين لكل تغير ، ولا يمكن ان توافق أنت على ذلك ايضـا ، لان الـدين ليس مقياس حرارة يقتصر عملـه على تسجيل درجة الحرارة ، ولا هو بالاداة التي ترصد اتجـاه هبـوب الرياح . . لا يمكن تعريف الدين بهـذه العبـارات ولا يمـكن ان

يصير إلى أداة آلية غريبة ، وليس بيننا واحد يريد من الـدين ان يعمل كسجل لتغيرات الازمنة ، وان دينا وضعيا مزعوما لا يمكن ان يتحمل هذا الوضع فكيف بدين منزل ؟ ! . .

ان الدين يقر التغير كحقيقة واقعة ويعطي اكمل مجـال لسـير الامور من اجل تحول صحيح سليم .

الدين يتقدم مع الحياة يدا بيد ولا يواكبها فقط كتابع لهـا . . ووظيفته هو أيضا أن يميز بين تغير سليم وآخر غير سليم ، وبين نزعة هدامة وأخرى بناءة . . ويجب أن يقرر الـدين فيما اذا كان التحول نافعا أو ضارا بالبشرية أو بأتباعه على الاقل .

وبينما يتمشى الدين مع الحياة الديناميكية جنبـا إلى جنـب من جهة ، فانه يعمل حارسا وحاميا لها من جهة أخرى ، وتجب عليه مهمة المراقبة والضبط أيضا . وليس من مهمة الوصي أن يدعم كل ما يفعله القاصر الموضوع تحت وصايته ويؤ يد كل ميوله ، الجيدة منها والسيئة ، أو ان يصادق بختم الموافقة على كل شيء يسعـى وراءه . . بل ان الدين يمتلك ختما واحدا وحبرا واحدا ويدا واحدة فقط . . وليس من شأنه أن يلصق طابعه على أي وثيقة أو صك . . بل يجب عليه أن يميز ويختار . أجل أنه يفحص (الوثيقة) أولا ثم يصدر حكمه . . فان وجد فيها خطأ أو ضررا حاول الـدين أن يتركها برفق ـ اذا امكن ـ أو بقـوة اذا اقتضى الامـر ذلك ، واذا عرضت عليه وثيقة واعتبرها ضارة بالجنس البشري فهو لا يمتنـع

عن تصديقها وختمها فقط ، بل يكافح لمقاومتها . وهنا يكمن الفرق بين الدين والاخلاق ، فالدين يرى من واجبه ومسؤوليته ضبط النزعة الخاطئة وردها بينما تكتفي الاخلاق بالاشارة اليها واظهارها .

بعض المحن في تاريخ الدين :

نجد في تاريخ الدين بعض الفترات التي فقد فيها الدين الاتصال المباشر بالحياة ، ولكن التقصير لا يكمن في ذات الدين ، وانما هو تقصير أتباعه ، وليس الدين هو الذي يفشل في مواكبة الحياة ، ولكن أنصاره هم الذين لا يطبقون مثله العليا وقيمه النبيلة نتيجة لكسلهم ولا بمالاتهم . . وان هؤلاء الانصار يتخلفون عن الركب بينما تسير قافلة الحياة إلى الامام .

والفرق بين الدين وأنصاره دقيق جدا حتى أننا لا نشغل أنفسنا بالتحقيق لنصل إلى تحميل أيهما المسؤولية الحقيقية ، ولكننا نميل - دائما - إلى اقترانهما ببعضهما . . ولو أجريت دراسة نقدية موضوعية لتبين ان الاسلام ، من حيث هو عقيدة الهية لم يكن مسؤولا عن هذه الحال المؤسفة ، لانه ليس في الاسلام ما يمنعه من تلبية حاجات العالم العملية وحل مشاكله .

انه لضعف عام فينا . . أن نلقي باللوم على الاخرين ، فعندما يتعذر على المسلمين حل مشاكلهم على ضوء القرآن ويعجزون عن ايجاد تآلف بين احكام الشريعة النابعة من العقيدة الخالدة وبين

حقائق العالم المتغيرة ينتقدون القرآن ولا ينقدون أنفسهم ، ويقدمون للنقاد انطباعا بأن القرآن ناقص لانه لا يقدم تبريرا لكل نزواتهم ورغباتهم وحاجاتهم ! ! . . وكما قال اقبال :

« انّ اعتقاد هؤلاء العبيد ان القرآن ناقص لانه لا يعلم المسلمين طرق العبودية ! ! . . » .

ويمضي بعضهم إلى أبعد من ذلك اذ يحاولون اخضاع القرآن لنزواتهم واهوائهم ومطامحهم فيقدمون تفاسير له تتضمن تبريرا لاعمالهم وافكارهم المنحرفة الضالة ، وبدلا من أن يصوغوا أنفسهم في قالب القرآن يحاولون صب القرآن في قالب افكارهم واعمالهم تلك ! ! . . .

ولقد ألقى مولانا أبو الكلام آزاد الضوء على هذا الضعف بأسلوبه الفذ في تفسيره للقرآن حين كتب قائلا :

« وعندما شعروا انهم لا يستطيعون أن يتمشوا والقرآن في علوه العظيم حاولوا أن ينزلوه من عليائه ليتمشى ومستواهم المنحط » .

ندرة ذوي المواهب :

ان فترات الركود في عالم العقيدة ، أو فترات الفوضى والتعقيد ، والصراع الداخلي بين اتباعها : هي فترات يندر فيها الرجال ذوو الكفاءة والمقدرة ، الذين يستطيعون قبول تحدي العصر ويعملون هداة اقوياء دعاة للدين .

وفي تاريخ الاسلام نرى انه كلما لقيت العقيدة تمثيلا فعالا حقيقيا كان المجتمع الاسلامي والشريعة الاسلامية ـ أبدا ـ في منأى عن أزمة الثقة . . وخلال تاريخ الاسلام الطويل والمتأرجح بين القوة والضعف نجد رجالا بارزين ارتفعوا فوق المستوى العام ، ووضعوا نهاية لمصدر الاذى في عصرهم ، وأوجدوا حلولا للمشاكل الجديدة وأدوا ـ بنجاح ـ مسؤولية القيام بما تمليه العقيدة والدفاع عنها والتكلم بأسمها . .

فلقد ولد الامام أبو حنيفة والامام مالك والامام الشافعي والامام احمد بن حنبل في عصر كان الاسلام والعالم بحاجة اليهم . ولقد حلوا المشاكل التي ظهرت نتيجة لتوسع بلاد الاسلام ، فقدموا التشريع الاسلامي بشكل واضح ومحدد ، وظهر فيما بعد قادة للفكر والعمل ، كالامام ابي موسى الاشعري والامام الغزالي ، الذين صارعوا التحديات التي واجهوها في زمانهم واوجدوا حلولا مناسبة لها .

سهلة مثلما هي معقدة :

ان القضية بسيطة جدا ولكن بامكانها ان تصبح اكثر تعقيدا حين تفحص من وجهة النظر الفلسفية والتعليل المنطقي . . انها سهلة كما هي معقدة ، وبسيطة كما هي مركبة . انها سهلة وبسيطة اذا ما أدركت أولا حقيقة أن الزمن لا يتغير بالطريقة التي لا تستطيع معها مدرسة فكرية ولا نظام اخلاقي مجاراته . ويجب

علينا الوصول إلى فهم اهمية الزمن ووضعه في المكان المناسب ، وفي نفس الوقت فهم الاسلام ، وأن نتولى دراسته دراسة عميقة ، ونرى أي هدي خالد هذا الذي يقدمه لنا القرآن ، وكيف ان الاسلام يقدر ميزة التغير في الحياة ، ويدعو إلى التفكير والتأمل .

وعلينا أن نتفحص كيف أن الرعيل الاول من المسلمين ، الذين كان عليهم مواجهة افكار وعقائد وحضارات جديدة ولاول مرة ، استطاعوا انجاز مهمتهم بنجاح . . .

ان التمشي مع العصر الحديث جنبا إلى جنب شيء لا يدعو إلى الافتخار فيما يخص الاسلام ، اذ انه يستطيع فعلا أن يكون رائد العصر الحديث ويرشده إلى الطريق السوي .

انطواء على الانتحار :

أية هوة من الدمار مقبل عليها العصر الحديث ، كيف ينطوي على الانتحار ويدفع بالبشرية إلى الهلاك ؟ انه يقدم الكثير من الدلائل والشواهد التي تشير إلى عدم نفع الجنس البشري في مملكة الله وتبين ان الانسان لا يمتلك حق العيش في هذه المملكة !! . .

ما القوى المدمرة التي تعمل عملها فيها ؟ من خلال المبادىء الثابتة في القرآن سواء الاجتماعية منها او الاخلاقية والتي تتعلق بالوجود الفردي والجماعي لا يستطيع الاسلام ان يفي بمتطلبات العصر الحاضر فحسب ، بل انه يستطيع ـ أيضا ـ أن ينقذ المدنية الحديثة من الدمار والفناء . ان القضية لم تعد مسألة مجاراة العصر

الحديث ، ولكنها قضية انقاذ البشرية .

ما هو مصير اولئك الذين يحلفون بالعصر الحديث ، ويكيلون له المديح ويعقدون المؤتمرات باسمه وإلى أين سينتهون ؟ ؟ هل سيسمع لهم صوت في عالم يعبد فيه البطن والشهوات الجسدية ؟ ؟ في وقتنا الحاضر هناك في العالم وفي بلدنا قوتان يسلم بهما وهما : القوة والثروة . وهنا يجدر بنا ان نتساءل : أيمكننا ان نفكر تفكيرا جديا في اي شيء ضمن محيط كهذا ؟ وهل سيكون الناس في وضع يسمح لهم بالاصغاء لنداء العقل ؟ ؟ ثمة شعار واحد سيلقى الآذان الصاغية له في هذه الحال : أصنع التبن حينما تكون الشمس ساطعة[1] ، ولن يكون للواجبات والقيم الاخلاقية والمثل الروحية أي معنى ويصبح الحديث عن انقاذ البشرية مجرد هراء لا يعيره أحد أدنى اهتمام .

ان قضية انقاذ العالم الحديث اصبحت الان اكثر اهمية من قضية انقاذ الاسلام . . فعليكم واجب الاهتمام بالعصر الحاضر الذي سكر حتى انه صار غير مهيىءلأنيستمع إلى أي شيء متزن وجاد ، ولا تقلقوا على الاسلام فانه يراقب كل عصر ويقرر كل متطلباته العادلة والخيرة والمشروعة . وما من نظام اعدل وانصف من الاسلام ، فلقد اهتم بكل صرخة ألم اهتماما شديدا ، وهو يناشد العقل ويحضه دائما على البقاء نشيطا وفعالا . . ان الجامعة

---

(١) يراد بهذا المثل : استغلال كل فرصة مواتية في سبيل المنفعة .

(١) يراد بهذا المثل .

الاسلامية والمدارس العربية هي اليوم في عطلة ـ ربما كانت في عطلة يوم أحد أو يوم جمعة ، ولكن العقل البشري لا يعرف العطل ، ولقد أكد الاسلام على رجال العلم ان يكونوا اكثر تضحية من أي فرد آخر ، وأن يكونوا مستعدين ليعيشوا في مستوى حياة قاسية وصارمة . .

سوء فهم :

ان سوء التفسير يتسبب في كثير من حالات سوء التفاهم ، فلقد نصحنا الامام علي بمخاطبة الناس على قدر عقولهم . . وان نقدم الحقائق المبهمة بطريقة تمكن العقل من قبولها ، وليست القضية متعلقة باللغة وحدها ، بل هي قضية طريقة التفكير وصيغة التعبير .

ثم يضيف الامام علي قائلا : أتريدون ان تدحض احكام (أوامر) الله ورسوله ؟ وأن يفند الله ورسوله لا لان دينه بمبادئه متناقض مع حقائق الزمن ، وانما لانها لا تقدم بأسلوب صحيح جذاب وسهل الادراك .

ان الاسلام يطلب مكانه الخاص به في العالم المتغير ويصر على هذه المطالبة اذا كان (العالم) ينشد الرحمة . ومن جهة اخرى يمكن للعالم ان يتقدم في الوجهة الصحيحة تحت قيادة الاسلام .

الدين والتمدن :

ان اهتماماتنا في هذه المرحلة تتوجه نحو التمدن . . انها فكرة

غربية ، وكثيرون هم الذين يتصورون ان الاسلام اسـم لمدينـة اندثرت وبـادت !!! والكتـاب مولعـون بالتنـويه اليهـا كتـراث للاسلام . . وان الاسلام له مدنية ولكنه لا يمثل حضارة قديمة .

نعلم ان حضارة عمرها خمسمائة او الف من السنين ليس لها تأثير فعال في عالم متغير ، لكن الـدين ليس اسما فقـط لبعض القيم الاخلاقية ، او لنظام اجتماعي وثقافي او لمدرسة في فن العمارة . . انها قضية حقائق تقع خارج نطاق الخبـرة البشرية وقضية اركان الايمان والمبادىء الجوهرية كعقيدة ، والصلة بـين الـرب وعبـاده ونواميس الوجود السرمدية .

اذا كان مجال الاسلام بهذا الشكل فمن السخف ان يتسـاءل المرء ما سيحدث للاسلام فيما لو تبدلت المعايير ، وهل بمقدوره ان يتناسـب معهـا ؟ فالمفـكرون الغـربيون يثـيرون قضـايا باطلـة ويعززون خلافات جدلية مضللة . ومهما تغيرت الحياة فسيبقى هناك مكان للحقائق الخارجة عن نطاق الخبرة البشرية ، والوجود بكامله يجب ان يخضع لمراقبة الايمان . . والا سقطنا فريسة لنفس الشر السائد في المجتمعات الغربية .

البحث الرابع

رسالة سيرة النبيّ الأخيرة
إلى إنسان القرن العشرين

القسم الاول من بحث قدمه سماحة الاستاذ أبي الحسن الندوي لمؤتمر السيرة والسنة النبوية بقطر .

كلما قرعت آذاننا كلمة « الجاهلية » تمثل أمامنا عفوا عهد القرن السادس الميلادي المظلم ، الذي بعث فيه النبي الاعظم سيدنا محمد ﷺ ، وظهرت أولى معجزات تعاليمه وتربيته وتوجيهه . . فما أن نسمع كلمة « الجاهلية » الا وتتمثل أمام أعيننا الامة العربية بخصائصها ومزاياها ، وملامحها وقسماتها الجاهلية ، تلك التي صوّرها كتابنا في موضوع السيرة .

لكن « الجاهلية » لا تختص بذلك العهد ، فكل عهد هو عهد الجاهلية لدى الاسلام اذا حرم هداية الوحي الالهي ونور النبوة ، وتغاضى عن تعاليم الانبياء وتنكر لها بعد أن تبين له الهدى ، أو لم يحظ به بتاتا ، ولا فرق في ذلك بين جاهلية القرن السادس الميلادي العالمية ، أو القرون الوسطى في تاريخ أوروبا ، التي تعرف في الاغلب بالقرون المظلمة ، أو عهد الحضارة والرقي الزاهر الزاهي في القرن العشرين الذي نجتازه .

يصرح القرآن الكريم أن النور فرد ، ومشكاته واحدة « الله نور السماوات والارض »[1] والظلمات لا حد لها ولا نهاية ، ولو لم

---

(١) سورة النور الآية ٣٥

يتجل النور الالهي الذي يأتي عن طريق الانبياء والرسل وحدهم لخيم على العالم من الظلمات المتراكمة ما لا يحصى ولا يقاس ، ولا ظلمت كل مرحلة من مراحل الحياة ، وعمت الظلمة وطمت ، وتراكمت وتكاثفت .

« كظلمات في بحر لجِّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور»[1]. وكلما يذكر القرآن الكريم النور والظلمة متقارنين ، يذكر النور فرداً والظلمة جمعا ، مما يدل على أن الظلمة أنواع وأشكال ، وأما النور فهو واحد ، ولولم يسطع هذا النور الالهي لما استطاع نور صناعي أن يشق هذه الظلمات الحالكة المطبقة ، ولكان العالم البشري كمقبرة مظلمة مترامية الاطراف ليس فيها منفذ نور ، ولم يكن ليستضيء مهما أوقد الموقدون شموعا صناعية ذات اضواء قوية قاهرة ، ساطعة باهرة .

« أومن كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشي به في الناس ، كمن مثله في الظلمات ، ليس بخارج منها »[2] .

يبدو كأن أرض الغرب ـ التي لا تطلع منها الشمس وانما تغرب فيها ـ قلما حظيت بنور النبوة ، وحاول أهلها أن يستعيضوا عنه

---

(١) سورة النور الآية ٤٠

(٢) سورة الانعام الآية ١٢٢

بالنور البشري الصناعي . . ان عهد اليونان والروم الذهبي لهو العهد الزاهر الرائع جدا في التاريخ البشري بالنسبة إلى ازدهار العلوم والفنون البشرية ، لكنه أحلك العهود ـ كأحلك العهود الجاهلية ـ بالنسبة إلى تعاليم الانبياء ، وقد خبطوا خبط عشواء فيما يتعلق بذات الله وصفاته ، وكان عمادهم في ذلك الظن والتخمين ، والخرص والترجيم دون استناد الى توجيه سديد واشراقة مستقيمة «ما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يخرصون»[1] ، ولا تقل فلسفتهم والهياتهم التي دونها حكماؤهم وفلاسفتهم طرافة وخرافة عن أساطير الشرق وألاعيبها وأعاجيبها ، وقد تلمع في أقوال سقراط وأفلاطون ـ دون أرسطو ـ وتعليمات فلاسفة الاخلاق اثارة من تعاليم الانبياء لمعان اليراعة في الليلة المطيرة الشاتية ، مما يدل على أن تعاليم الانبياء قد طرقت اذانهم في حين من الاحيان ، لكن هذا النور لم يكن من السطوع والثبات بحيث يمكنهم أن يعولوا عليه في دياجير الحياة « كلما أضاء لهم مشوا فيه ، واذا أظلم عليهم قاموا »[2] .

ومما يبعث العجب أن مصباح الهداية الذي أوقده سيدنا المسيح عليه السلام ظل يسطع وينير في الشرق طوال مدة قرنين ، رغم العواصف الهوجاء ، لكنه خبا في الغرب في حضانة المعنيين به والحارسين عليه ، فقد فقدت تعاليم المسيح عليه السلام أصالتها

---

(١) سورة الزخرف الآية ٢٠

(٢) سورة البقرة الآية ٢٠

في الغرب ، حيث حظيت المسيحية لاول مرة بالحكم والسيادة ، وانصب تيار الوثنية والشرك في نهر المسيحية ، وربما لم تشق ديانة في العالم البشري بمتبعيها الجدد كما شقيت المسيحية بالامبراطور قسطنطين ، و « بولس القديس » ، وبعدما انطفأ هذا المصباح الالهامي الالهي بقي رجال الكنيسة يخدعون العالم المسيحي الغر المفتون بحسن الظن بمصابيح صناعية من عند أنفسهم ، وحاولوا أن يؤكدوا للناس أنهم لا يزالون يحتفظون بالنور الكريم الوهاج الذي جاء به المسيح عليه السلام من عند ربه ، والواقع أنه كان قد توارى في الظلمات المتراكمة المترامية منذ قرون ، وابتلعته الوثنية الرومية المتطرفة :

« مثلهم كمثل الذي استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون »[1] .

وعلى الرغم من ذلك كله يجب الاعتراف بأن الغرب ظل يسعد بالاعتقاد بالاله ، والايمان بالآخرة ، بفضل المسيحية . وذلك لان الدين السماوي مهما تغير وتبدل ، فانه يجعل الايمان بالله وبالآخرة يجري في المؤمنين به مجرى الدم ، ويتغلغل في أحشائهم بحيث لا يمكن نزعه من القلوب نزعا تاما . . هبت في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر المسيحي في أوروبا ريح العقلانية بل المادية العاتية ، التي وضعت الغرب على طريق المادية

(١) سورة البقرة الآية ١٧

الجامحة في صورة جوفاء ، وعلى طريقة عمياء ، ودرج عليه الغرب وقطع أشواطا بعيدة ، فعاد أسلوبه للحياة والتفكير لا يقبل الاله والآخرة . أن الغرب كله لم يعلن كفره بالاله أو رفضه لعقيدة الآخرة نهارا جهارا ، لكن أسلوب حياته الذي يعيشه لا ينم عن الايمان بالاله والآخرة ، ويصح اليوم أن نقول : إن أوروبا لا تدين بالمسيحية وانما تدين بالمادية ، وقد ظلت الوثنية ديانة أوروبا قرونا ، وتدعي الان منذ مدة طويلة انها تدين بالمسيحية ، لكنها لم تخلص لها ، ولم تحرص عليها ، ولم تبذل لها حبها وودها ، كما صنعت هذه الديانة (المادية) وكنائس هذه الديانة الجديدة ومعابدها المصانع ومراكز الصناعة والتجارة ، والمنتزهات غنية ليل نهار ، آهلة في كل حين وآن ، ورجال هذه الديانة هم أصحاب رؤوس الاموال والصناع ، وأصحاب الملايين ، ينظر اليهم نظرة الاجلال والاكبار ، بل يقدسون ويعبدون ، وبالعكس من ذلك أصبحت المسيحية في الغرب ظلا شاحبا .

وقد ظهر ـ ولا يزال ـ في الغرب جميع ما هو نتيجة منطقية لهذا التناسي للذات ولهذا الاسلوب من الحياة ، وأولى هذه النتائج الوخيمة أن الانسان الغربي تنكر للاله الاحد الصمد ، وعاد يتضرع الى مئات الآلهة ، قد رفع جبهته من عتبة واحدة كان فيها له غنى عن كل الجبهات ، وبدأ يطرَّح على كل عتبة ، وتلك هي عاقبة محتومة لكل من تنكر للاله الواحد الاحد ، الفرد الصمد . وهؤلاء الارباب من دون الله قد تسلطوا على الغرب في عدد لا

يحصيه الا الله ، وغلبوا على الغرب أمره ، فلا يجد من دونهم موئلا ، وهذه الاصنام أشكال وألوان ، تتمثل حينا في الزعيم السياسي ، وحينا آخر في اله الاقتصاد ، وفي مكان هي التزامات وقيود ، ومستوى الحياة التي افترضها الانسان وتبناها ، وفي مكان آخر واجبات وضروريات ، التزمها الانسان بنفسه ، وهذه الاصنام بمجموعها قد ضيقت الخناق على عبادها ، وأرغمتهم على عبادة تجعل عبادة الله مقابلها أيسر وأحلى منها آلاف المرات ، وتعاملهم معاملة شاقة قاسية دونها معاملة الانسان مع العجماوات والآلات الصماء ، وتضطرهم الى تضحيات هائلة ما قام بها احد من قبل لصنم أو اله ، وهناك صراع مرير بين اغراض هؤلاء الارباب من دون الله ، ومطامعهم واهوائهم ؛ جعل العالم يقوم ويقعد ، ومن بين هؤلاء الأصنام الكثيرة المتنوعة صنم « الوطنية » الذي يتطلب لنفسه قرابين النفوس البشرية والدماء الانسانية ، ومن بينهم صنم « المعدة » الذي عكف على عبادته انسان القرن العشرين ، ولا يبرحها ولا يحول عنها ، لكنه لا يكاد يرضى عنه بأي كمية من التضحية والعبادة ، وقد أجاد المستر اليورلاج حيث قال قبل مدة في محاضرة له :

« أصبحت بساطة الحياة حلما من الاحلام ، ولا يهم أحدا غرض كريم ، وفكرة سامية ، واصبح كل من الناس يدور حول مصنعه أو مكتبه ليل نهار كثور الطاحون ، يخدمه خدمة العبيد ، وأدى اختراع المراكب السريعة الى ان اصبح انسان القرن

العشرين دوامة لا هدوء لها ولا قرار » .

وأدى تقصير الانسان في جنب الله الى أنه وقع فريسة التناسي للذات ، وقد صرّح القرآن أن ذلك عاقبة محتومة لمن نسي الله ، وطوى عنه كشحا :

« ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم[1] » .

حقا ان انسان القرن العشرين هو نموذج كامل للتناسي للذات ، قد نسي حقيقته ، وخصائصه الانسانية ، وغرضه من هذه الحياة ، ومقصده من وجوده ، وعاد يعيش عيشة البهائم والجمادات ، وصار ماكينة تصوغ الدولارات التي لا تستطيع هي أن تنتفع بها في قليل أو كثير ، وبلغ إلى أن الراحة البدنية ، والطمأنينة القلبية التي قد تكون بعض قيمة هذه الجهود والجهاد ، أصبح لا ينالها في حياته ، ولا يفكر فيها ولا ينتبه اليها ، وقد صدق البروفسور « جود » حينما قال :

« يقول دزرائيلي ان المجتمع في عصره يعتقد أن الحضارة هي الراحة ، أما نحن فنعتقد أن الحضارة عبارة عن السرعة ، فالسرعة هي اله الشباب العصري ، وأنه يضحي بالهدوء والراحة والسلام والعطف على الآخرين من غير رحمة » .

وقد تغيرت وظيفة هذا الانسان بفعل التناسي للذات ، وبحكم اهماله لحقيقته وحقيقة نفسه ، فتقدم أشواطا بعيدة في

---

(١) سورة الحشر الآية ١٩

مجال الرقي في غير دائرته الطبيعية ، ولم يخط خطوة في دائرته الانسانية ، ولا تزال خصائصه وأخلاقه وصفاته الانسانية في انحطاط ، واذا رحت تحلل الرقي الذي أحرزه الانسان العصري ، فسوف تجد أنه عبارة عن بعض فضائل السباع الضواري ، والطيور ، والاسماك ، وقد اعترف الكتاب الاوروبيون بهذه الحقائق ، وقد جاء الكثير من شهاداتهم واعترافاتهم في كتابنا « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .

وكيف يرجى من الغرب أن يتضرع الى الله ، ويلجأ الى كنفه ، وقد بلغ هذا الحد من التناسي للذات ، انه مصداق صحيح لما قاله الفيلسوف والشاعر الاسلامي الدكتور محمد اقبال في شعره الفارسي : « اذا نسيت ذاتك وتنكرت لنفسك ، فلماذا تبحث عن محب لك ، عارف بك . اذا لم تتعرف على الانسان وحقيقته ، فأنى لك أن تتوصل الى الله ، خالق الانسان وفاطر الكون » .

أما نسيان الغرب للآخرة ، فأولى نتائجه الطبيعية أنه فتن بالمادية ، وأمعن إلى الحياة الدنيا ، وأخلد اليها ، ونشأ في قلبه الحرص المجنون الجامح على التمتع بلذائذ الحياة ، وأصبح كل ذلك غاية عليا ، ومقصدا أسمى ، وهدفا أسنى في حياته ، فتتسامع اليوم من كل جوانب الغرب نداء قويا عاليا للحصول على الخبز ولقمة العيش ، والاهتمام بالمعدة ، والتلذذ بالحياة الدنيا والولوع بمظاهرها الجوفاء والتمسك بأسبابها ، والحصول على

وسائلها ، ولا يصرف فرصة حياته الا في التنافس في احراز قصب السبق في هذا المجال ، وقد جعلت هذه المسابقة والتنافس الحياة في الغرب مضمار الرهان الذي لا نهاية له فهم في سكرة من الحياة الدنيا ، لديهم منها عليل لا يشفى ، وغليل لا يروى ، وكل يتطلع الى الجديد المزيد ، ويردد « هل من مزيد » وتتجدد كل يوم ضروريات الحياة وتتنوع ، وتتكاثر وسائل اشباع متطلبات الحياة وتتكثف ، وقد ولد كل ذلك مشكلات مستعصية ، وقضايا معقدة ، وقد أمدها وزاد في حدتها وشدتها التنافس التجاري ، ولا يزال مستوى الحياة يرتفع مع الايام ، وكل يرى الغاية بعيدة ، والمسافة شاسعة ، فأصبحت الحياة قلقة متبلبلة ، فقدت هدوءها وطمأنينتها من أجل انصراف الهمة كليا الى اتخاذ الوسائل للحصول على هذه الامور ، وأضحى الانسان الاوروبي في عذاب من الحرص والطمع والجشع لا ينتهي ، ورهينا للجهد والسعي للحياة الدنيا الذي لا يكاد يقف عند حد ، وأصبح الصبر والقناعة - اللذان هما أكسير يضفي على القلب طمأنينة سكينة - كالعنقاء التي يسمع عنها الانسان ولا يراها .

وهذا الحرص على التمتع بالحياة الدنيا الذي نراه نحن المسلمين جنونا وهوسا هو كل السعادة والنجاح ، وتمام الحظ لدى المنكرين للآخرة ، وذلك أمر طبيعي ، لان الذي أنكر الآخرة وأخلد الى هواه ، واطمأن الى الحياة الدنيا . . ما الذي يمنعه من التمتع بها ، والفوز بأكبر حظ من اللذة ، واشباع كل نهمة ، وتلبية كل

حاجة ، ولماذا يقصر فيما يمكنه من التنعم والتمتع والمرح والطرب ، ومن أن يشهد اللذات ويبادرها بما ملكته يداه :

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام ، والنار مثوى لهم »[1] . « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل ، فسوف يعلمون »[2] .

والنتيجة الثانية المشؤومة التي تترتب على انكار الآخرة هي أن هذه الحياة الدنيا ومطامعها ، وأمتعتها وزخارفها ، والوسائل التي تسعف الانسان فيها ، تتزين في القلوب وتتجمل في الاعين ، وتتحسن لدى العقول :

« ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ، زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون »[1] .

« قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا »[2].

ومن نتيجة ذلك أن الحياة أصبحت تتميز باللهو واللعب ،

---

(١) سورة محمد الآية ١٢

(٢) سورة الحجر الآية ٣

(٣) سورة النمل الآية ٤

(٤) سورة الكهف الآية ١٠٣

وبدأت تفقد عناصر الجد والحقيقة ، وعادت تشغلها وسائل اللهو والطرب والتسلية والسرور ، ولا يغير في وضعهم هذا أخطر الساعات العصيبة ، ولا يحد من غلوائهم أدهى الاوقات وأمرها :

« وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ،وغرتهم الحياة الدنيا »[1].

ومن نتيجته ، أنهم لا يعللون الحوادث والوقائع الا بالعلل المادية الظاهرة المحسوسة المشهودة ، ولا يتوصلون الى الاسباب الحقيقية ، ولا يدركون حقيقة الامر ، ولا يمسون صميم الواقع ، فلا يقع خلل في امعانهم في وسائل التنعم والتسلية واللهو في أدق الساعات وأحرجها ، ويعللون الحوادث بما يشاؤون ، ويسترسلون الى العلل الجوفاء التي يفترضونها ، ولا يقع تغيرما في موقفهم وأسلوب حياتهم :

« ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون »[2] .

ومن خصائص انكار الآخرة وجزائها العلو والاستكبار ، فمنكر الآخرة لا يمنعه شيء من الانانية والتكبر والخيلاء ، لان الذي لا يؤمن بقوة فوق قوته وبحياة بعد هذه الحياة ، وبيوم يحاسب فيه العبد على كل صغيرة وكبيرة أتاها في الحياة الدنيا ، لا

---

(١) سورة الانعام الآية : ٧٠

(٢) سورة الانعام الآية ٤٢ ـ ٤٣ .

يحول بينه وبين أن يكون فرسا جامحا حبله على غاربه ، وانسانا سادرا في غلوائه يصنع ما يشاء ، ويسير على الاهـواء ، ويركب العمياء ، ومن ثم قد شفع القرآن الكريم في أكثر مواضعـه ذكر انكار الآخر بذكر التكبر ، فكأنهما يلزم أحدهما الآخر : « فالذين لا يؤ منون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون »[1] .

وجاء في معرض الحديث عن فرعون وجنوده : « واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق ، وظنوا أنهم الينا لا يرجعون » . .

ومثل هذه الامة ، المنكرة للآخـرة ، المؤمنـة بالمادية ، يكون بطشهـا شديدا وضربهـا موجعـا أليما ، وفتحهـا اذلالا للعبـاد ، وتدميرا وافسادا للبلاد : « واذا بطشتم بطشتم جبارين »[3] . . « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون »[4] .

وكذلك بقي الغرب محروما من الايمان بالرسالة والنبوة ، وقد آمن بالمسيح عليه السلام ابنا لله ، ولكنه لم يؤمن به ـ في الواقع العملي ـ رسولا مطاعا ، وهاديا في الحياة ، وقائدا لسفينة النجاة ، كان الامر الاول شيئا اعتقادياً نظريا ، لا يؤثر على الحياة ، ولا

---

(١) سورة النحل الآية ٢٢

(٢) سورة القصص الآية ٣٩

(٣) سورة الشعراء الآية ١٣٠

سورة النمل الآية ٣٤

يغير في الاعمال والاخلاق والسلوك والعادات . أما الامر الثاني ، وهـو الايمـان به كهــاد في الحياة ، وداع الى الفلاح والنجــاة ، والاستضاءة بسيرته وحياتـه في ظلمات الحياة ، واعتبـاره نموذجـا كاملا للسلوك الامثل . . فكان شيئا يغـير مجـرى الحياة ، لكن الغرب لم يصنع ذلك ، ولم يكن له ذلك سهلا ميسورا ، فلـم يكن يعرف الا أحوال خمسين يوما من حياة المسيح عليه السلام ، وهي نبذات متبعثرة لا تعطي صورة واضحة للنبـي المبعـوث من الله ، فلا تمكن الانسان من الاقتـداء ، ولا تيسر له الائتسـاء . يقول القس الفاضل الدكتور شارلس اندرسن اسكات في مقـال له في دائرة .

ان العالم المتحضر ـ فيما قبـل ثلاثـة عشر قرنـا ونصف قرن ـ الذي كان يقوده امبراطوريتا رومـــا وفارس ،كان يضاهي العالم الجديد الذي نعيش فيه الى أبعد مدى ، فقد كان الانسان في ذلك العالم قد نسي ربه ، فنسي نفسه بالتـالي . ولـم يكن الاعتقـاد بالله الا نظرية تاريخية ، فكان الناس يؤ منون على النمط التاريخي وحده بأن هذا العالم قد خلقه الله في زمن من الازمـان « ولئـن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله » . ولكن هذا الاعتقاد لم يكن يتدخل في الحياة العملية ، وكانوا يعيشون الحياة كأن الله ليس له وجود ، أو هو موجود لكنه يعيش في العزلة ، وقد تنازل للآخرين عن سلطته وحكمه .

(١) سورة لقمان الآية ٢٥

كانت شبكة عبادة غير الله وأرباب من دون الله منبثة في أرجاء الارض ، في مكان تعبد الاصنام والاوثان ، وفي آخر تعبد العناصر والاجناس والاقوام ، وفي أرض تعبد الاهواء والشهوات ، وفي أخرى تعبد القوة والسلطة ، وفي مكان يعبد الملوك والسلاطين ، وفي مكان يعبد الاحبار والرهبان . . كان الانسان قد نسي هدف حياته ، وبدايتها ونهايتها . وتغاضى عن الغاية الاصيلة في الحياة ، وأمعن في الانتحار التدريجي والاعمال الخاطئة التي لا تعينه ، ساد العالم كله وضع قاتم من التناسي للذات ، كان رجال الحكومة لا يهمهم الا الظلم والجور ، والجبر والبطش والاستيلاء والاستبداد ، وجمع الثروة ، وانفاقها في اللذة ، والركوب على أعناق الناس وامتصاص دمائهم . . وكان رجال الثروة الارستقراطيون في شغل شاغل من البذخ والتنعم ، وقد تنوعت متطلبات الحياة وتكثرت الى حد كان لا يكفي لاشباعها أكبر قدر ممكن من الضرائب والاتاوات المستحدثة . وكان الانسان يرزح تحت اثقال الحياة ، ويذوب هما وراء كسب الاعتبار والاحترام بين بني جنسه ، وكان أصحاب الطبقة الوسطى لا تدعهم محاكاة أصحاب الطبقة العليا ومنافستهم يفكرون في شيء آخر ، أما الفقراء والطبقة الكادحةوالمسحوقون فكانت ظهورهم مثقلة بألوان الضرائب والاتاوات ، وبأنواع العبودية والرق ، كانوا منهمكين في توفير وسائل اللذة والتنعم للامراء والحكام واشباع متطلباتهم كالعجماوات والبهائم ، فلئن

سعدوا بفرصة سانحة في وقت ما ، كانوا يتسلون بوسائل التسلية المحرمة وأنواع المسكرات لترويح انفسهم من عناء الاشغال ، وربما لا يوجد في دولة واسعة رجل واحد يهمه دينه وآخرته وعقيدته ، ويقض مضجعه ذكر الموت ، وكان الشعب البريء مسحوقا بين حجري رحى ، طمع الملوك ورغبتهم الجامحة في الاستيلاء والاستعباد ، وتوسيع رقعة الملك والنفوذ ، فقد غزت امبراطورية فارس دولة الشام المسيحية دون مبرر ، وسقت أرض الله بدماء تسعين ألفا من النفوس البريئة ، وقد فعلت امبراطورية روما بامبراطورية « فارس » الافاعيل كأجراءات انتقامية ودامت هذه الحرب الدامية سنين طوالا من غير غرض سام وبدون مبرر كاف ، وظل أبناء الامبراطوريتين المتحضرتين في العالم يتصارعون فيما بينهم ويتعاركون ، ويلغ بعضهم في دماء بعض كالوحوش الضواري في الغابة ،علـى كل فكان العالم كله ظلاما في ظلام ، وفسادا في فساد ، وانحطاطا في انحطاط .

وهنالك بعث الله في أمة أمية تعيش في عزلة عن هذا العالم المتمدن المتداعي المنهار نبيا أميا لكي ينقذ العالم من العذاب الذي بقي يأكله قرونا طويلة ، ويحذره من عذاب الآخرة ، ويخرجه من الظلمات الى النور ، ويضع عنه اصره والاغلال التي كانت عليه :

« يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ويحل لهم

الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم »[1] .

وقد بعث هذا النبي الامي الى الامبراطور الرومي « هرقل » رسال من المدينة المنورة في السنة ٧ ـ هـ ـ ٦٣٠ م كانت تتضمن الدعوة الآتية :

« يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواءبيننا وبينكم ، ألا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله »[2] .

وقد اعترف هرقل بصدق الدعوة لكنه لم يستطع ان يتنازل ـ لضعف في نفسه وعجز في رأيه وعقله ـ عن « الربوبية » التي كان يتمتع بها ، وعلى ذلك فلم يسعد بالتخلص من عذاب الحياة الرومية وويلاتها الا حين طرده المسلمون من ربوع الشام وبدأت تخفق على مروجها الخضراء راية الاسلام ، راية الرحمة والعدل ، والمساواة والحرية تحت ظل التوحيد .

والامة العربية الامية المسكينة حين آمنت برسالة النبي الامي ﷺ تقطعت كل سلاسل عبوديتها تلقائيا ، وتحررت عن عبودية النفس والسلطان ، وتخلصت من أغلال السيادة والاعراف والتقاليد الجاهلية ، وقيود المجتمع والبيئة الظالمة الخانقة ، والبلايا

(١) سورة الاعراف الآية ١٥٧

(٢) سورة آل عمران الآية ٦٤

التي كانت ترزح تحتها من عند نفسها أو بيد غيرها ، وتبعثرت عظمة الالهة الصناعية والاصنام المنحوتة بيد البشر أمام معرفة الله ، وأصبحت الامة العربية البائسة ، الجائعة المنعزلة ، المنطوية على نفسها ، الصفيقة الثياب ، المتزرة بأرديتها البالية ، التي لم تتجاوز بواديها وصحاريها ، ولم يكن لها عهد بمظاهر الزينة والابهة . . أصبحت تتحدث مع ملوك العجم وسلاطينها حديث الند للند ، وصارت لا تحفل بمظاهر الفخفخة وزينة البلاط العجمي ، كأن هذه كلها صور ودمى قد كسيت ملابس أو زينت بأوراق ذات ألوان متنوعة زاهية ، وعادت واقعية نفاذة الى الحقيقة ، مدركة للواقع ، فكانت لا تحسب حسابا للمظاهر الجوفاء والاشكال الفارغة ، ولا تحيد قيد شعرة عن مبادئها ومستواها الخلقي الاعلى ، وكانت ترى نفسها مكلفة باخراج عباد الله من عبادة العباد الى عبادة الله ، وتحطيم الوهية البشر للبشر في الارض .

وقد تقلبت حياتهم ظهرا لبطن بهذا التحول في نفسيتهم وعقليتهم الذي أحدثه الايمان بالله الواحد القهار ، تحولت الرذيلة فضيلة وتحول الانسان الضاري ملكا في صفاته السامية ، وقاطع الطريق حارسا أمينا محافظا على أعراض أخوانه وأموالهم ونفوسهم ، والذين كانوا يفجرون أنهار الدماء على شيء تافة ، على سقي الماشية مقدما أو مؤخرا ، أصبحوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ويفضلون الموت عطشا لسقي أخوانهم .

والذين كانوا يئدون بناتهم بأيديهم عادوا يحتضنون بنات الآخرين ويكفلونها على الفقر وقلة ذات اليد . والذين كانوا يرون أموال غيرهم أموالهم صاروا يرون في أموالهم حقا للآخرين . والذين كانوا يهجمون على الاعراض وينهبون أموال الناس نهارا وجهارا عادوا يدفعون في الليلة الحالكة تاج الامبراطور الايراني الذهبي الذي كان يقوَّم بالملايين الى أميرهم مستورا في ثيابهم .

وقد وضع الاقبال على الله والآخرة من شدة التهالك على الدنيا ونعيمها ، تلك التي قد ضيقت الارض على البشر بما رحبت ، وحولت الدنيا كلها الى سوق ومتجر . أما روح التنافس الطبيعية فقد أيقظت في الانسان ، باتجاهها الى الدين ، الاريحية والمزايا الانسانية النبيلة ، وهذبت الاخلاق ، وطهرت السلوك والعادات ، فلم تزل روح التنافس تفعل فعلها القوي في الطبقات الانسانية المختلفة وفيما بين أفرادها المختلفين ، ولكن كان ذلك فيما يتصل بالصلاح والخير ، والحصول على الاجر والثواب ، والطمع في رضا الله ومغفرته .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ان فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا والنعيم المقيم ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل من الاموال يحجون ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون . فقال : الا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم الا من صنع مثل ما صنعتم ؟ قالوا :

بلى يا رسول الله ، قال : تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين (متفق عليه) وزاد مسلم في روايته : فرجع فقراء المهاجرين الى رسول الله ﷺ ، فقالوا سمع اخواننا أهل الاموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله ﷺ : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

لقد حولت روح القناعة والعفاف الدنيا كلها جنة ونعيما ، يتمثل فيها معنى « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[1] ، وتآلفت القلوب وتخالطت وتصافت الى حد تمثل قوله تعالى « ونزعنا ما في صدورهم من غل »[2] الذي جاء في وصف أهل الجنة . . في هذه الدنيا ، وحل الشعور بالمسؤولية محل المطالبة بالحقوق ، وعاطفة الايثار محل الطمع والشره ، حتى رأى الناس بأم أعينهم مظاهر « يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[3] وشهدت السماء في حيرة واعجاب كيف نوَّم المضيف الكريم أطفاله يعضهم الجوع ، وأقنع الضيف باطفاء السراج انه يشاركه الاكل ، فنهض الضيف وقد شبع وارتوى ، وبات المضيف مع أهله وأولاده جائعين .

هذا التحول والصلاح ، والانقلاب العجيب ـ بكل معاني الكلمة ـ كان وليد الايمان بالله الذي لا اله الا هو ، وتفويض النفس اليه ، والى تربية النبي المعصوم فتوطدت عرى حياتهم ،

---

(١) سورة يونس الآية ٦٢

(٢) سورة الحجر الآية ٤٧

(٣) سورة الحشر الآية ٩

ونال كل شيء محله اللائق ، ورجع كل أمر الى نصابه ،

ولكن العالم المسيحي زهد بهذه الرسالة . لقد خضع لها شطره الشرقي بعد قليل ، ودان للنبي الذي جاء بهذه الرسالة ، ولكن شطره الغربي والشمالي (اوروبا) ظل محروما من نشاط الدعاة المجاهدين ، وعاش مدة تسعة قرون . . متتابعة في ظلام حالك ، وجهالة مطبقة ، وقد دعاها بنفسه القرون المظلمة (الوسطى) وسيبقى هذا العهد الطويل العريض الذي عاشته اوروبا في وحشية سوداء وجهالة عمياء ، وفي محاربة العقل والمنطق ، والشذوذ عن الفطرة ، والخضوع للاوهام والاحلام ، تحت اشراف رهبانية قاسية ضارية ، ومراقبة من رجال الكنيسة عنيفة متطرفة . . حسرة في قلب اوروبا وغصة في حلقها الى يوم القيامة ، وستبقى وصمة عار يتندى لها جبينها وينتكس منها رأسها ، وكان كل ذلك نتيجة عبادة العباد للعباد « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله »[1]

ولما هبت اوروبا في القرن السادس عشر من غفلتها الطويلة ورقدتها العميقة ، رأت أن العلاج الوحيد الشافي هو التحرر من عبودية الكنيسة ، لكنها لم تقطع مرحلة « لا اله » كاملة ، وظنت « لا كنيسة » مرادفة لـ « لا اله » فنفت الكنيسة وأسقطتها من الحساب ، وسلطت على نفسها الهة أخرى كثيرة ، ولم تتوصل الى

---

(١) سورة التوبة الآية ٣١

« الا الله » ، وظلت تنحت آلهة جديدة عبر ثلاثة قرون من تاريخها ، وبقيت تمثل « أتعبدون ما تنحتون »[1] ، ولا تزال كارهة لالهتها القديمة ، ناحتة لالهة شتى جديدة ، بأسماء طريفة ، وعناوين جديدة ، من « ديمقراطية » و« دكتاتورية » و« رأسمالية » و« اشتراكية » و« وطنية » و« قومية » . لقد عييت حيلها ، وعجزت التها وأرادت ان تحكم عرى حياتها فتفككت ، وأن توطد أركانها فتقوضت ، وأن تشيد بنيانها فتداعى ، وتحاول أن تقيم الامور فتتعقد بقدر ذلك ، وبقدر ما تحاول أن تتخلص من المآزق تتورط فيها ، ولن تجد مخلصا ولا ملجأ من الله الا اليه .

ومهما خططت حياتها ، وعدلت فيها وغيرت ، وحذفت منها وأضافت اليها ، ومهما اخترعت لها عناوين جديدة ، وأشكالا حديثة ، ومهما وزعت مسؤولية فرد على أفراد ، أو أسندت مسؤولية أفراد الى فرد من خلاصة الافراد ، فسوف لا يقدم ذلك في القضية ولا يؤخر ، سواء كان « المسؤول الامين » هو الفرد أم الجماعة ، أو الامة بأسرها . . ما لم يتغير القلب ويخضع صاحبه أمام قدرة قاهرة ، عليمة بصيرة ، هي القدرة الالهية ، وما لم يخش قلبه مؤاخذة الله ، ومحاسبة الآخرة ، وما لم يتملك عليه الشعور بالخير ، والرغبة في الصلاح ، والنزعة الى الامانة . . وذلك ان الاسماء والعناوين لا تغير في الحقائق والمفاهيم .

---

(١) سورة الصافات الآية ٩٥

ورسالة السيرة النبوية الى عالم القرن العشرين ـ الذي تقوده اليوم أوروبا من غير جدارة واستحقاق ـ أن يفر الصالون عن الله الى الله ، وان لا يتخذوا من دونه الها ، وأن يرتموا في حضن رحمته ، ويطرحوا على عتبة عبوديته ارتماء الطفل الصغير في حجر أمه ، واطراح العبد المطيع الخاضع الخائف الخاشع على عتبة سيده : « ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين ، ولا تجعلوا مع الله الها اخر اني لكم منه نذير مبين »(١)

وهي رسالة تخاطب بها السيرة النبوية العالم البشري كله كل عام ، يحملها الاثير الى أرجاء العالم ، والبحار على أمواجها ، الى الامم والاقوام ، ولو هدأت قليلا هذه الضوضاء التي كدرت على العالم صفو الحياة ، والتي تحول دون سماع العويل والنحيب ، لسمعنا النداء التي سمعه اهل الكتاب في فجر الاسلام :

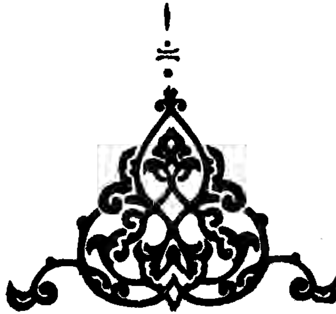
« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور بأذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم » .

ان الانبياء هم مجذفو سفينة البشرية ، وهم الذين قادوها الى ساحل النجاة عبر التاريخ البشري ، ومهما تنكر أحد لهذه السفينة ، واستغنى عنها ، وتفاداها الى « جبل » فان مصيره

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٠ ـ ٥١

المحتوم هو مصير ابن نوح الشارد المارد العاتي الطاغـي ، الـذي قال : « سآوي الى جبل يعصمني من الماء[1]. فقال له « لا عاصم اليوم من أمر الله»[2] وقد قرر الله بعد بعثة النبي الاعظم محمد ﷺ أن سعـادة الامـم والافـراد ، والشرق والغـرب ، والاولـين والاخـرين ، منوطـة بالايمـان برسالتـه ، والاهتـداء بسيرتـه ، والتمسك بسنته . ومن اتجه عنه الى الشرق أو الغرب ، وآوى الى « جبل » فلن يعود الا بالويل ، ولن ينال الا الشقاء ، ولن يستقبله الا البلاء ، ولن يظلم الا نفسه .



(١) سورة المائدة الآية ١٥ ـ ١٦

(٢) سورة هود الآية ٤٣

الفهرس

الفصل الاول :

كارثة التعصب اللغوي والثقافي ٧

الفصل الثاني :

مصادر العلوم الانسانية ٣٥

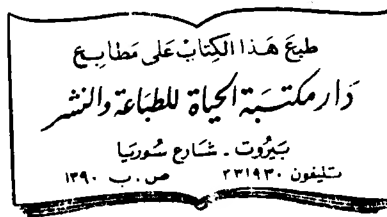
الفصل الثالث :

الاسلام في عالم متغير ٥١

الفصل الرابع :

رسالة سيرة النبي الامين

إلى انسان القرن العشرين ٦٧


طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت . شارع سوريا
تليفون ٢٣١٩٣٠ ص . ب ١٣٩٠